إلى القارئ

الثقافة عنصر عصمة من الاستسلام والذوبان في الغير

بقلم : محمد مزالي

انها لفرصة (*) سعيدة تتاح لى للالتقاء بكم والتعبير لكم عن ارتياحى لنتائج أعمال مؤتمركم الذى كلل بالنجاح . وإن ما قدمته وزارة الشؤون الثقافية من مساعدات إنما هو أدنى الواجبات وانى لأشعر بالابتهاج يغمرنى خاصة لأهمية ما اتفقتم عليه فى شأن الخطة الثقافية العربية الشاملة التى رسمت ملامحها الاولية نخبة من أهل الذكر من بين المثقفين العرب .

غير أن الأهم من ذلك هو تطبيق ما جاء فى هذه الخطة والتزام كل المسؤولين وأجهزتهم فى الوطن العربى بادخال تلك التوصيات مرحلة التنفيذ لأنى أعلم أن الثقافة فى البلدان العربية ليست فى الغالب ضمن أولويات مشاغل المسؤولين واهتماماتهم .

وفى تونس ... توصلنا الى ايجاد السبل العملية للنهوض بالثقافة وتنزيلها المنزلة التى هى بها جديرة . فقائدنا رجل ثقافة بدأ نضاله بالقلم ، والوزير الاول يمارس الثقافة منذ عقود . كذلك الشأن بالنسبة لرئيس مجلس النواب وبالطبع وزير الشؤون الثقافية نفسه . فليس من الغريب اذن أن

(*) هذا نص الكلمة التى ارتجلها الاستاذ محمد مزالى الوزير الاول ووزير الداخلية أثناء استقباله لوزراء الثقافة بمناسبة انعقاد مؤتمرهم بتونس وذلك يوم 27 نوفمبر 1985 .

يكون فى تونس حظوظ وافرة ليضطلع رجال الفكر والثقافة بشتى المسؤوليات وأعظمها شانا .

وقد تجدنى أجيب مداعبا بعض الصحفيين العرب الذين يسألوننى أحيانا عن طريقة توفيقى بين السياسة والثقافة : « هل من مميزات الساسة أن يكونوا جهلة » ؟! وهذا من شأنه أن يعود بنا الى تطارح مسألة العلاقة بين الثقافة والسلطة .

وأملى أن يكون وجودنا ـ نحن رجال الفكر ـ فى مراكز قيادية دافعا لخدمة الثقافة باعتبارها المنطلق الصحيح للتنمية الشاملة سيما وأن تكاملنا الثقافى فى هذا الزمن الخاضع للتكتلات قد غدا ضروريا كخطوة حاسمة نحو التلاحم الشامل المنشود .

وها نحن نواصل الجهد قولا وكتابة وفعلا حتى نفتح امام المبدعين مجالات العطاء والاضافة ، والاضافة فى جوهرها هى المحافظة على الخصائص المتميزة لكل جهة أو مدينة أو قطر فى العادات والتقاليد والممارسات ونمط العيش وهندسة المعمار . وما الثقافة الحق الا تفاعل جدلى بين كل هذه الخصائص والميزات المحلية والجهوية .

وعندما ندرج كلمة « التونسة » فى مقولاتنا فانما نعنى بذلك تلك الاضافة الخصوصية التى باستطاعة التونسى أن يقدمها للحضارة العربية الاسلامية من جهة والحضارة الكونية من جهة أخرى اذ كل قطر من أقطارنا مطالب بالخلق والاضافة . وكل جهة من جهات القطر الواحد مدعوة للمساهمة بعطاءات متميزة فشاعر الجريد مثلا ليس كشاعر غابات الفرنان من حيث مصادر الاستيحاء وأبو القاسم الشابى استلهم صور قصائده من واحات الجريد فى حين كان لشعراء الساحل أو الشمال منابع أخرى للاستيحاء مختلفة .

وقد تجد فى العائلة الواحدة اختلافا فى هوايات الافراد وممارساتهم فهل معنى ذلك أن هذه العائلة مجزأة ولا وحدة فيها ، وهل من الصواب أن يكون كل الابناء نسخة مطابقة لوالدهم ؟!

لذلك ترانى لا أزال منذ أكثر من ثلاثين سنة أدعو الى تنمية تلك القدرات المتنوعة وتنشيطهـا والعمل من أجـل الوحدة فـي التنـوع والشمـول مـع الخصوصيـات .

واليوم تعانى أمتنا العربية من انغلاق لا مبرر له ... الشىء الذى ساهم فى الغالب فى تدني العطاء الابداعى وكرس التأخر على أديمها . لكن بالثقافة نستطيع أن نحطم جدران الجفاء . فقد يجوز اختلافنا سياسيا فى ظرف ما أو فى قضية بعينها ، لكن لا مبرر لاختلاف ثقافى بيننا . فنحن نشتـرك فى الدين واللغة والحضارة والتاريخ والمصير . ولهذا فان ضرورة تكاملنا ثقافيا لا لبس فيهـا .

إن الاستعمار سعى منذ مطلع هذا القرن الى اقامة الحواجز بيننا بالتشجيع على تعلم اللهجات العامية وتدريسها . ونحـن اذ نجيز استعمال العاميـة فى الحوار وفى حدود معينة ـ حسب ارادة بعض المبدعين فى القصـة والمسرح ـ فاننا نعتقد جازمين أن اللهجات العامية عنصر تفرقة وتباعد وأن خطرها كبير .

إن تونس تحجر على رجال التعليم التدريس بالعامية ، وقد ساهمت خطب الرئيس الحبيب بورقيبة ومحاضراته وكذلك الاذاعة الوطنية فى تبسيط العربية الفصحى فأصبحت فى متناول الجماهير التى ارتفع مستواها اللغوى فى نفس الوقت بفضل تعميم التعليم وانتشار الثقافة .

هذه هى قناعاتى التى لن تغير منها المسؤولية السياسية شيئا ، بل إن هذا المنصب اسخره لتنفيذ جملة التصورات الثقافية والحضارية القوميـة الساكنة ذاتى ، فهو عندى أداة وليس غاية فى حد ذاته . ذلك أنى بدأت حياتى مناضـلا وسأبقى كذلك حتى النهاية .

وحبذا لو بقي كل المسؤولين فى الحكم أوفياء لهذا التصور الحضارى . اذ الحضارة عنصر وحدة . ومن هنا وجب علينا أن ننميها ونعتز بها وندافع عنها وندرأ كل عوامل وتيارات الزيغ عن ساحتها . ولان الجـدل استفحـل بين الساسة العرب وكثرت الخلافات فان الواجب يدعونا نحن رجال الثقافة الى صيانة

شبابنا من الضياع واليأس ، إذ أخشى ما نخشاه هو أن تشب أجيالنا الصاعدة ـ بسبب أوضاعنا السياسية الصعبة ـ على الفشل والعجز والارتماء بين أحضان ثقافات أجنبية .

وفي هذا الاطار المتميز بصعوبة أوضاعنا السياسية ، علينا بالسعي الى تقوية جامعنا المشترك أي الثقافة التي بها نصون ذاتنا من التلاشي ونحفظ جوهر وجودنا رغم تكاثر الاعراض والعناصر الخارجية والداخلية العاملة على تفريقنا . وهذا ما يجعلنا ننظر الى الافق بتفاؤل . وقد ذكرت بذلك أكثر من مرة عندما أرى اليأس والاستسلام وقد استبد ببعض المثقفين والكتاب وأذكر أني كتبت افتتاحية في مجلة « الفكر » اثر امضاء اتفاقيات مخيم داود بالخصوص ، قلت فيها ما معناه : إنه بامكاننا التماس بعض الاعذار ونحن نرى السياسيين والمسؤولين يزورون القدس ويسعون الى التطبيع خاصة وأن المسألة قد تكون ظرفية . أما رجال الثقافة والكتاب الذين ابطحوا وسلموا بتفوق الصهاينة فهذا أمر عسير الهضم .

ولكن الذي يصعب تداركه ثقافيا ـ اذا ما انحدرنا اليه وتورطنا فيه ـ فهو اليأس وفقدان الشباب العربي الثقة في النفس والتسليم بأن العدو الصهيوني لا يقهر فيتملكه تبعا لكل ذلك الاحباط ، وتكون المصيبة . طالما أن الاستعمار ينطلق بضرب ملكات التفكير والاحساس لدى الانسان ويفقده الثقة في النفس . وقد كان التونسيون يعتقدون في مطلع القرن أن الاستعمار قضاء وقدر والامبراطورية الفرنسية باقية لن تتزحزح فسعينا الى تغيير هذه العقلية حتى اندحر الاستعمار يوم تصدينا له بالثبات والروح المعنوية العالية ودرء اليأس عن أنفسنا ، ولم يكن ذلك لا بالدبابات ولا بالعتاد العسكري .

وقد تجد من بعض المثقفين « العقلاء » أو « الواقعيين » في تلك الفترة من يقول للرئيس الحبيب بورقيبة : إن وجود فرنسا قضاء وقدر . وإنها باقية ، الى أن يقدر الله ذهابها ولهذا علينا أن نبقى مكتوفي الايدي حتى يأتي اليوم الذي نستيقظ فيه صباحا فنجد فرنسا وقد رحلت . وهذا هو عين القضاء المغلوط .

وكنا نجد بعض المشائخ بعمائمهم وبرانيسهم يحفظون القرآن ويدرسون علوم الدين وهم مورطون مع فرنسا تكريسا للاستعمار . فلما قادت الامبراطورية الفرنسية على أرض تونس الحملة الصليبية التاسعة بمناسبة انعقاد المؤتمر الافخارستي ونزل قرابة ثمانية آلاف شاب يحملون الزي الصليبي في شوارع تونس كان عدد من كبار المشائخ والمفاتي حاضرين في المنصة الشرفية مع كبار القساوسة والمقيم العام فاندفع محام شاب يقود مجموعة من ذوي العزائم الصادقة ليبدأ جهاده بتغيير عقلية التونسي عملا بالآية الكريمة : « إن الله لا يغير ما بقوم حتى يغيروا ما بأنفسهم » وما هي الا فترة من الزمن عصيبة حتى أصبح التونسي يرفع رأسه عاليا تحديا للفرنسي ورشاشه مجسما ارادة الحياة كما ذكرها الشابي في قصيدته الشهيرة . وهكذا انتصر الشعب التونسي نفسانيا ثم انتصر على الواقع الاستعماري .

واني أؤكد على ضرورة صيانة شبابنا من وهم اسطورة التفوق الاسرائيلي فيشعر بالاحباط واليأس والاستسلام ويقبل بالامر الواقع . وهنا يأتي دور الثقافة باعتبارها عنصر عصمة من الاستسلام والذوبان في منطق الاقوى لان قوة الروح أشد من الحديد والنار . فالروح تسبق المادة دوما وهذا هو جوهر الثقافة أساسا وعلينا كمثقفين ومسؤولين ووزراء أن نشيع هذه المعاني بين شبابنا بالطرق العلمية الحديثة حتى يقف شامخا أمام العدو ويواجه المشاكل التي تعترضه برباطة جاش ويعالجها بشجاعة وحكمة ويؤمن بأن نكهة الحياة وشرف الانسان في مصارعة المشاكل وتجاوز منزلة الدون ! ومعنى هذا أن الثقافة هي ما يصون الامة من عوامل التلاشي والمسخ ويبقيها حية الى أن يرث الله الارض ومن عليها وهو خير الوارثين .

على كل ها نحن نواصل النضال رغم أن بعض الظواهر توحي أن من يتحمل المسؤولية السياسية قد يتواطأ مع الواقع أو يتورط فيه ولكن العكس هو الذي حصل بالنسبة إلينا والحمد لله ! والواقع لن يتجاوزنا ، ونحن ما زلنا في ساحة النضال جنودا لخدمة المبادىء السامية الساكنة في أعماقنا دوما .

محمد مزالي

لننزل الحدود الثقافية بين أقطارنا !

بقلم : البشير بن سلامة

إنه لشرف عظيم (*) أن أتولى نيابة عن الاستاذ محمد مزالى الوزير الاول ووزير الداخلية ،وباسم الحكومة التونسية ، وأصالة عن نفسى ، تقديم أعمق آيات الترحيب اليكم ، المعبرة عن أنقى أحاسيس الروابط الاخوية وأنبل المشاعر النابعة من لقاء الشقيق بأشقائه . وأغتنم هذه المناسبة العظيمة ، لأتمنى لكم اقامة طيبة فى وطنكم الثانى تونس ، أرض اللقاء والاخوة والصفاء . وأرجو أن تكلل أعمال مؤتمرنا هذا بالنجاح الكامل ، وأن تحقق ما نصبو اليه من نتائج ، وما نروم من أهداف .

حضرات الضيوف الكرام ، أيها الملأ الكريم ،

هلا أرانى منذ البداية ــ فى هذا اللقاء الذى يعقد لاول مرة على هذا المستوى فى تونس ــ الا من المتفائلين : مطمئنا ، مسبقا ، الى النتائج التى اليها ستنتهى ، والتوصيات التى عن أشغالنا ستتمخض . وانه لتفاؤل مشروع ، أحقيتى فيه حضوركم حين تجشمتم مشتاق السفر ، وارهاق المسافات ، وذللتم مصاعب ضغوط الزمن ، وفرائض الشغل اليومى المستمر ، فلبيتم بذلك هذه الدعوة من قبل المنظمة العربية للتربية والثقافة والعلوم واستجبتم لنداء الواجب لتسجلوا خطورة هذا اللقاء الذى سيكون منعطفا فى ارساء دعائم خطة التنمية الثقافية الشاملة . وتلك لعمرى من العلامات المبشرة بحظوظ النجاح ، والمؤشرات المؤكدة على بلوغ المؤمل من النتائج ، والمرجو من الاهداف .

حضرات الزملاء الكرام ،

إننا لمدركون جميعا ، لدور الثقافة الدقيق ، وأهميتها البالغة فى تحديد نمط المجتمع الذى نريد . انها أساس الحضارة ، بل هى الحضارة أصلا ، هدفها

(*) هذا نص الخطاب الذى توجه به الاستاذ البشير بن سلامه وزير الشؤون الثقافية فى مؤتمر الوزراء المسؤولين عن شؤون الثقافة فى الوطن العربى من 26 الى 28 نوفمبر 1985 بتونس .

تكوين الفرد وصقل مواهبه . ونحت الذات المتوازنة ذات الدور الفاعل في الحياة ، والمؤثر في مجرى الاحداث خلقا وإضافة وانتاجا . فالثقافة ، في بعدها التشبييدي ، هي الارضية التي على أساسها يقام كل بناء ، وهي الدعامات والركائز التي بصلابتها يزداد هذا البناء شموخا ، وبهشاشتها يتصدع ليصبح عرضة للهزات والاندثار . انها ــ أي الثقافة ــ في شموليتها ، كمجمع لروافد الفكر في مختلف أشكال الابداع والخلق ، تمثل تلكم الاوتاد التي تشد كل بناء حضاري الى أرض الواقع في معطياته الموضوعية .

وعلى هذا الاساس ، لا غرو أن نولي الثقافة في تونس المكانة التي تستحق. فهي ــ في جوهرها ــ استيعاب لعناصر المحيط ، ثابتها ومتحركها ، وهي توظيف انتاجي متجدد لهذه العناصر . وعليه ، فلا مجال لتعصير هذا القطاع الانتاجي أو ذلك ، ولا سبيل لتطويره دون زاد من التجربة والدراية ، هما أصلا من صميم الثقافة .

فلا يجوز مطلقا أن نرنو الى تحقيق تنمية مادية شاملة ومركزة ، دون أن تكون قد أدينا واجبنا في تكوين الفرد ، تثقيفا فعليا ، يصقل الموهبة ، ويهذب الذوق ويفجر الطاقات الكوامن ، فالانسان المتوازن ــ أي المثقف ــ هو الاقدر على تطويع المحيط لارادته واستغلال الواقع لصالحه .

وانطلاقا من هذا الايمان ،تركز منهجنا الثقافي على أبعاد فكرية وفلسفية ثابتة ، تستمد جذورها من توجهنا البورقيبي الاصيل ، في مراميه العربية الاسلامية المتجذرة ، التي زادها رجل الفكر والثقافة ، الاستاذ محمد مزالي متانة ورسوخا .

وتتمثل هذه الابعاد الفكرية والمرامي الفلسفية في أن الثقافة ، عنصر من عناصر التنمية الشاملة : وينبع هذا التوجه ، كما سلف الذكر ، من ايماننا الراسخ بادخال الثقافة في صلب الدورة الاقتصادية للبلاد ، واعتبارها ضمن مخططات التنمية الشاملة وفقا لمتطلبات سياسة متماسكة . فالعلاقة الجدلية بين الثقافة والاقتصاد ، أي بين الثروة الفكرية والثروة المادية ، علاقة وثقى . فليست الثقافة ، كما يؤكد ذلك الاستاذ محمد مزالي الوزير الاول : « عملية جمالية فقط ، وانما هي انتاج أيضا ، وبهذا الاعتبار تخضع لمقاييس القطاع الاقتصادي ومتطلباته » .

ومن هذا المنظور ، وعلاوة على تأثير الثقافة على القطاعات الحياتية الاخرى ، فانها تعني في ازدهارها ، ازدهار الصناعات الثقافية ، التي تخلق بدورها صناعات فرعية تسهم في بعث مواطن استثمار وشغل ، تساعد على تحقيق

الوفرة المرجوة فى الانتاج . وهكذا ما فتئنا نعمل على ترسيخ وعي الجميع بوجوب الاسهام فى النهوض بالثقافة ، وعدم قصر المسؤولية على وزارة الشؤون الثقافية ، وحصرها فى دواليبها الادارية ، وامكاناتها المالية . فالثقافة تهم مختلف الاطراف الاخرى ، كوزارة التربية ، والشباب والرياضة . والاعلام ، والسياحة ، والتعمير والاسكان ، والنقل والمواصلات والمنظمات الوطنية ...

ثم انه لا يمكن تحقيق ما نصبو اليه من الاهداف اذا لم نعمد الى تثبيت المرتكزات الديمقراطية للعمل الثقافى كمنحى أساسى يتنزل فى صلب التوجه الديمقراطى العام للبلاد ، بل هو جوهره المميز باعتبار الثقافة ممارسة يومية ، فى محيطها يتحرك الفرد بالخلق والتلقى فى مناخ من الحرية ملائم . ويكمن جوهر هذا البعد أساسا ، فى تمكين جميع الخلاقين من فرص للابداع متساوية ، والعمل على ايصال ثمرات الفكر الى كافة أفراد المجتمع بأضمن حظوظ العدل على أساس اللامركزية الثقافية التى هى أقوم مسالك الديمقراطية ممارسة وتطبيقا من ذلك النص القانونى الشورى الباعث للمجالس الجهوية الثقافية .

والثقافة أيضا مع هذا التوجه الديمقراطى المنهمى ابداع واضافة ذلك أن الخلق والابداع فى المجال الثقافى يمثلان الغاية التى لها نطمح . فالامم بثقافاتها ، والشعوب بما ابتكرت وأضافت . وانى لمستحضر فى هذا الصدد قولة بليغة للمجاهد الاكبر الرئيس الحبيب بورقيبة حيث أكد مبرزا أن « ليست الثقافة هى التى يصيبها الوهن فى جوهرها من شدة الهرم ، وانما هو تخلف الامم ، تسري عدواه الى كل شؤونها ، فيضعف سلطان الفكر ، وتعتل ملكة التعبير ، وتتقلص سيطرة الانسان على الطبيعة ، تلك السيطرة التى هى من قوام الثقافة الانسانية عامة » .

ومن هنا ، فكل أمة مدعوة ، ان هى رنت الى الارتقاء والخلود ، لان تضيف فى حاضرها الى ما تم ابتكاره فى ماضيها . فبدون خلق واضافة ينقطع الوصل بين حلقات الفكر الثلاث ، الرابطة بين الماضى والحاضر والمستقبل . تزول بذلك جدوى المساعى التشييدية . فلا الديمقراطية لها نفع ، ولا التشجيع له فائدة ، ولا الهياكل والتجهيزات لها وظيفة ...

ومما لا جدال فيه ان كل هذه المرتكزات تجد فاعليتها فى فلك اثبات الذات وتجذير الشخصية . فآدمية الفرد ، وانسانيته المتميزة لن تتحققا الا بتكوين شخصية أصيلة وذات متجذرة . وهذه الشخصية ، انما هى نتاج علاقة جدلية بين حلقات ثلاث : « الأنا » الماضى ، و « الأنا » الحاضر ، و « الأنا » المستقبل .

وبخلق شخصية ثابتة ، يتسنى لنا اثبات وجودنا كامة مقوماتها صلبة . وأثرها فاعل ، ودورها باد ، قادرة على التصدي لكل محاولات الغزو والاستلاب .

غير أن اثبات الذات وتأصيلها ، لا يعنى البتة ، فى نظرنا ، التعصب والانغلاق والتقوقع داخل قوالب سلفية جاهزة ، فنحن ، كما يقول المجاهد الاكبر : « متجهون فى نهضتنا الحديثة ، اتجاها حضاريا ، نروم أن تكون عناصره الاساسية ، الوفاء لشخصيتنا الثقافية العربية ، والاخذ بالعقل والعلوم والفنون مع الحفاظ على قيمنا الروحية الاصيلة فى ميدانى الاخلاق والدين » .

وهكذا ، فان الاصالة واثبات الذات ، لا يستقيمان فى الحقيقة الا بالتفاعل مع الذوات الاخرى أخذا وعطاء . فحتى ذلكم التمايز بين مختلف الثقافات والحضارات هو من قبيل التكامل كلما ارتقى الى خدمة الانسانية ونفعها . وهذا هو المنحى الذى ما انفك يؤكد عليه سيادة الرئيس حين قال : « ان تونس التى تنتسب الى الثقافة العربية الاسلامية ... لا يمكنها أن تنغلق على نفسها وتنكمش ، لان فى ذلك انتحارا فكريا .. وانما سبيلها أن تتطلع الى الثقافات الاخرى ، وتأخذ مما انتجه الفكر العالمى ، لتساير الواقع وتؤثر فيه ، وبذلك تبقى مخلصة لماضيها الثقافى ، ومتحفزة لمستقبلها البسام » .

وانه من السهل أن نقر بكل هذا ونعمق القول فيه ونتقصى المعانى اذا نحن لم نقرن القول بالعمل ونجابه المصاعب ونكون فى مستوى هذا الذى آمنا به وصدعنا بوجوبه ولم تثننا عنه ضغوط الاحداث ومزالق الحلول السهلة .

ولقد رأينا أن هذه المرتكزات النظرية للسياسة الثقافية فى تونس لن تجد سبيلها الى التطبيق اذا لم نوفر الهياكل الاساسية والتجهيزات الضرورية . وهو ما عملنا فعلا على توفيره على مختلف المستويات اذ بدأنا ببعث دور الثقافة ودور الشعب والمكتبات والمسارح وقاعات السنما وقاعات العروض عبر مختلف مناطق الجمهورية ، وذلك بهدف ايصال الغذاء الفكرى للمواطن حيثما كان . وسعيا دوما الى يتوفر فى هذه الدور كل انتاج جديد فى هذا القطاع أو ذلك .

كما بعثنا مؤسسات ثقافية كبرى تعنى بشؤون الخلق فى مختلف مجالات الابداع : ونذكر مثلا المسرح الوطنى الذى هو مؤسسة تعنى بشؤون المسرح وتقف الى جانب الفرق الاخرى محترفة وهاوية . كما دعمنا الشركة التونسية للانتاج والتنمية السنمائية لتقوم بدورها على صعيدى الانتاج السنمائى

والصناعة السنمائية . أضف الى ذلك فقد بعثنا مؤسسة فكرية بالغة الاهمية وهي « بيت الحكمة » التي تعنى بشؤون الفكر تحقيقا ودراسة وترجمة وخلقا وابداعا وبحثا تجريبيا مخبريا .

ولم يقف اهتمامنا عند هذا الحد ، بل أصدرنا قانونا في ديسمبر 1982 يلزم الباعثين العقاريين والمؤسسات الاقتصادية والجماعات العمومية من بلديات ومجالس ولايات وكذلك الشركات بتخصيص فضاءات ثقافية ضمن كل مشروع أو هيكل اقتصادي أو اجتماعي جديد . وهكذا تنافست كل الجهات منذ ثلاث سنوات في اقامة الهياكل الاساسية الثقافية مما مكن وزارة الشؤون الثقافية من استغلال هياكل كانت عاجزة عن بعثها لو اكتفت بحدود ميزانيتها .

ومما لاشك فيه أن هذا المجهود يبقى منقوصا ان نحن لم نعمل على تكوين جيل متخصص يحمل المشعل ويواصل المسيرة ، لتبقى حلقات الخلق والاضافة متواصلة . وعلى هذا الاساس ، فقد ركزنا مؤسسات تكوينية في مختلف القطاعات الثقافية مثل المعهد الأعلى للمسرح ، والمعهد الأعلى للموسيقى ، والمعهد الأعلى لتكوين المنشطين الثقافيين ...

وتجنبا للمصاعب المادية التي قد تواجه المبدعين وتعرقل مسيرة الخلاقين ، بعثنا هيكلا هاما أسميناه صندوق التنمية الثقافية ، يقف بالمؤازرة والتشجيع لكل المفكرين وذلك باقتناء نسب من انتاجهم والعمل على ترويجه بالاضافة الى اقتناء أجود الاعمال عربيا وعالميا لتمكين المواطن التونسي من الاطلاع عليها .

وقد قمنا بجملة من الاجراءات تدخل كلها في باب التشجيع والمؤازرة كاعفاء الكتب من الاداءات الجمركية تصديرا وتوريدا واعفاء الكتاب التونسي المصدر من تكاليف الشحن عن طريق الخطوط الجوية التونسية وبدعم الورق المستعمل للكتاب وشراء ألف نسخة على الاقل من كل عنوان يصدر ودعم خمس وأربعين مجلة ثقافية بشراءات تتراوح بين ألف وثلاثة آلاف نسخة مما أعطى حركية بالغة الاثر في صناعة الكتاب أولا وفي توفير الكتاب في المكتبات العمومية والنوادي والجمعيات . ثم ان صندوق التنمية الثقافية لم يتوقف على تشجيع الكتاب بل صرفنا العناية الى المسرح والموسيقى انتاجا وترويجا ومكنا كل الخلاقين في هذين الفنين من ابراز طاقاتهم وكذلك ميدان السنما والفنون التشكيلية .

وعلاوة على كل هذا فان هذا الصندوق مكن التونسيين من التعرف الى ثقافات العالم العربية منها والافريقية والاوربية وجعلهم يحتكون بأحدث ما

فيها ثم انه أتاح الفرصة للانتاج الثقافي التونسي أن يروج في بلاد العالم وذلك بطرق علمية دقيقة لا تترك للارتجال سبيلا ولا الى الصدفة طريقا .

معذرة ان كنت أطلت ، الحديث عن التجربة التونسية بعض الشيء . فلا أراكم الا متطاعين الى التعرف اليها ، باعتبارها لبنة من لبنات البناء الثقافي العربي الشامل . ومما لا شك فيه أن هذا القطاع ، يلقى من العناية والاهتمام في مختلف اقطارنا العربية ، ما يلقاه في تونس . واني من ذلك لعلى يقين .

بيد أن هذه المجهودات ، واستمحكم التعبير عن رأيي بكل صراحة ، تبقى منقوصة ، بل إنها الآن لكذلك ، وستتواصل كذلك ان استمرت أعمالنا منفصلة ، غير متصلة ، مشتتة غير متكاملة ولا يسعني هنا الا أن أذكر بالدعوة التي ما انفك يصرح بها الاستاذ محمد مزالي الوزير الاول لعقد قمة ثقافية عربية ، تمكن من تدارس شؤون الثقافة والغوص في استنباط سبل دعمها على أساس استراتيجية موحدة وتوجهات متكاملة على غرار ما يتم — ولو من حين لآخر — في مجالات أخرى اقتصادية واجتماعية واعلامية وما اليها .

فدعوة حضرة الوزير الاول هذه ، نابعة من ايمانه الراسخ بأن لا مجال لتوطيد عرى التعاون في أي مجال ، الا بارساء تكامل ثقافي وثيق ، يقرب بين المواطن العربي وأخيه ، ويحمله بالحضور اليه والجلوس معه عبر جسور الثقافة وقنوات الفكر . ويزداد هذا الطلب أهمية في عصر طغت عليه التكتلات ، وسيطرت على مجرى أحداثه التحالفات . ولا أراني مبالغا إن أكدت أنه باستطاعة الثقافة وحدها أن تذلل العراقيل السياسية — وهي حقيقة — وتساعدنا على بلوغ أهدافنا الموحدة . ولا أظن المسألة عسيرة بين أقطار أمة واحدة ، يجمعها تاريخ واحد ولغة واحدة ودين واحد ، هي بالضرورة عوامل فاعلة في المساعدة على التخطيط لحاضر واحد مفض الى مستقبل واحد .

فمجهوداتنا الحالية لا تفي بالحاجة المطلوبة . فلا تبادل الوفود ، ولا تنظيم الاسابيع الثقافية هنا وهناك ، ولا حضور المهرجانات التي نقيمها في هذا القطر أو ذاك بكافية وحدها لدعم التكامل المنشود . بل وحتى الاكتفاء بالاتصال عبر وسائل الاتصال لن يمكننا من بلوغ أهدافنا المنشودة . ذلك أن تواصلنا يجب أن يكون يوميا وباستمرار لا ظرفيا وبالصدفة وهذا يقتضي قرارات جريئة مالية واقتصادية وسياسية اذ تقدم الثقافة العربية في كل قطر رهينة بهذا التواصل الدائم المستمر فلنبدأ برفع الحدود الثقافية قبل كل شيء ولنضمن تنقل الكتاب والقطعة الموسيقية وصاحب الكتاب والمسرحية والموسيقى وغيرهم ثم نتطرق الى الحواجز والموانع الاخرى .

واني أريد أن أسجل بكل فخر واعتزاز ما بدأناه في هذا السبيل مع الشقيقة الجزائر بعد ما توصل اليه المجاهد الاكبر الرئيس الحبيب بورقيبة والرئيس الشاذلي بن جديد من اقامة الركائز الحقيقية للاخاء والتعاون وما قمت به أنا وزميلي صديقي العزيز الدكتور عبد المجيد مزيان لتطبيق هذه الارادة السياسية في سبيل ازالة الحدود الثقافية بين تونس والجزائر .

غير أن تقصيرنا هذا ـ واسمحوا لي هذا الاعتراف ـ لن يحجب عنا ما تقوم به المنظمة العربية للتربية والثقافة والعلوم من مجهودات جبارة لدفع العمل الثقافي العربي المشترك على الدرب الذي نريد . انها مجهودات مسجلة في ذاكرة كل عربي ، تصب بروافدها في نهر الثقافة العربية الأم . وان ذلك لمرتقب من قبل منظمة يديرها رجل فكر ، آمن بدور الثقافة الفعال ، وأهميتها البالغة في ارساء البناء العربي المشترك . وهي تحية أوجهها بكل صدق واعتزاز الى صديقي وأخي العزيز الدكتور محيي الدين صابر الذي لم يدخر جهدا لبلوغ هذه الامنيات العزيزة علينا . وما توصل اليه مع نخبة من رجال الثقافة اللامعين وخاصة صديقنا الدكتور عبد العزيز حسين والدكتور محمد يوسف نجم من ضبط خطة للثقافة العربية لدليل على هذا الجهد الموفق الذي لا يني وعربون لنجاح ما نسعى اليه جميعا .

أملي أن يكون هذا اللقاء ، فاتحة عهد للقاءات أخرى تتواصل بيننا وتستمر لنعمل سويا ونسعى لترسيخ ثوابت استراتيجية ثقافية موحدة ، ترفع ثقافتنا الى مستواها الحضاري وتمكنها من الاشعاع على الحضارة الانسانية .

البشير بن سلامة

تهنئـــــة

تتقدم أسرة مجلة « الفكر » الى قرائها واحبائها باحر التهاني بمناسبة حلول السنة الميلادية الجديدة 1986

البلاغ المبين (*)

شعر: نور الدين صمّود

رُسُلُ اللهِ والرَّسُولُ الأَمِينُ
بِهِمُ الكَوْنُ شَعَّ فِيهِ اليَقِينُ

سَارَ فِي نُورِهِمْ جَمِيعُ البَرَايَا
وعَلَى هَدْيِهِمْ تَسِيرُ القُرُونُ

غَيْرَ أَنَّا نَرَاهُمْ قَدْ دَهَاهُمْ
مِنْ بَنِي قَوْمِهِمْ عَذَابٌ هُونُ

حَاوَلُوا غَبْنَهُمْ بِكُلِّ سِلَاحٍ
ضَلَّ قَوْمٌ نَبِيُّهُمْ مَغْبُونُ

قِيلَ عنهمْ : هذا كَذُوبٌ . وهذا
شَاعِرٌ سَاحِرٌ ، وذَا مجنُونُ

سَفَّهُوهُمْ وَكَذَّبُوهُمْ ، وَلَكِنْ
عَزْمُهُمْ ظَلَّ ثَابِتًا لاَ يَلِينُ

نَشَرُوا النُّورَ فالوجُودُ ضِيَاءٌ
يَبْهَرُ العَيْنَ مِنْهُ مَاتَتْ دُجُونْ

بَلَّغُوا أَمْرَ رَبِّهِمْ ثُمَّ قَالُوا
(مَا عَلَيْنَا إلاَّ البَلاَغُ المُبِينُ)

(*) من مجموعة شعرية قيد الطبع بعنوان : (ابتهالات من وحى القرآن)

الدورة الخامسة لمؤتمر الوزراء المسؤولين عن الشؤون الثقافية في الوطن العربي

بقلم : د. محيي الدين صابر

أحييكم (*) التحية أنتم أهلها والاحق بها وأرحب بكم فى رحاب منظمتكم ، فى مستهل الدورة الخامسة لمؤتمركم ، تقبلون عليها تعبيرا عن الالتزام القومى مشاركة مسؤولة ، وجهدا قادرا فى خدمة الثقافة العربية ، متابعة لقضاياها ، وتخطيطا لمسارها ، وتأكيدا لدورها فى بناء الانسان العربى ، وتطوير المجتمع العربى ، ومواصلة للسعى المثابر فى سبيل تنمية الثقافة العربية ، مرتكز الوحدة القومية ومناط التقدم الاجتماعى .

وانى أتقدم فى هذا المقام ، باسم منظمتكم العربية للتربية والثقافة والعلوم وباسمى ، بالشكر واجبا ، والتقدير مستحقا ، الى الجمهورية التونسية التى تلتقون فى رحابها ، رئيسا مجاهدا ، وحكومة قادرة ، وشعبا مناضلا ، لما ظلت تلقاه منظمتكم من الرعاية الممدودة فى كل مجال ، والعون القريب ، فى كل حين ، من المسؤولين والمواطنين ، مما يسر لها أداء واجبها القومى ومسؤوليتها الدولية ، وان تحية وفاء لمعالى الأخ محمد مزالى الوزير الأول ووزير الداخلية هذا مقامها ، فقد ظل أحد حداة الثقافة العربية المؤمنين بها ، وبعبقريتها ، وبعطائها ، وان رعايته لمؤتمركم هذا ، تاتى تعبيرا جديدا عن تكريمه للعمل الثقافى .

وانى أتوجه باسمكم جميعا وباسمى ، بالشكر هو أهله ، لمعالى الاخ الاستاذ الدكتور عبد المجيد مزيان ، وزير الثقافة فى الجمهورية الجزائرية الديمقراطية الشعبية ، ورئيس المؤتمر الرابع ، الذى كان لرئاسته الحكيمة له فضل الى فضل ، فيما أصاب من توفيق فى توصياته وقراراته ، ثم لمتابعته عمليات تنفيذها ؛ ما بين الدورتين ....

وفى هذا المقام ، فان واجب الوفاء ، يدعونا ، أن نذكر بالخير ، لقاء سعيه وجهده وعطائه ، رجلا بارا من أبناء هذه الامة ، خدم ثقافتها ، وعلمها ، فى مختلف المواقع ، قادرا ونافعا هو الاستاذ الدكتور عبد العزيز السيد المدير

(*) هذا نص الكلمة التى القاها الدكتور محيى الدين صابر المدير العام لمنظمة الألكسو فى مؤتمر وزراء الثقافة العرب .

المؤسس للمنظمة العربية للتربية والثقافة والعلوم ، الذى لبى نداء ربه ، منذ حين قريب ، وهو يؤدى واجبه العلمى ، حتى آخر لحظة فى حياته ، تلقاه بالبر والرضوان مع الشهداء والصالحين ؛ ان منظمتكم ، تدين له بالكثير ، فى وجودها ؛ وفى تنظيمها ؛ فقد وضع لها تجربته الواسعة والرشيدة ، التقاليد الرصينة ؛ ومكن لها من أن تقوم بواجبها القومى بكفاية ومسؤولية ؛ فلنقرأ سورة الفاتحة ، ترحما على روحه الطاهرة .

أيها الاخوة : تاتى هذه الدورة ، الخامسة ، واسطة العقد ، فى دورات مؤتمركم التى حققت بدراساتها وتوصياتها وقراراتها انجازات حقيقية فى خدمة الثقافة العربية ، فاهتمت الدورة الاولى ، فى عمان بمنطلق العمل الثقافى العربى فتصدت لموضوع السياسات الثقافية ؛ وافردت الدورة الثانية فى طرابلس لدراسة الادوات التصورية والوسائل المعينة على تحقيق السياسات الثقافية ، على أساس من وضع الخطة الشاملة لتنمية الثقافة العربية ، وتفرغت دورة بغداد لمعالجة قضايا الثقافة : طبيعة ووظيفة باعتبارها ثقافة عربية واحدة وموحدة ، وتعرضت دورة الجزائر لقضية محورية من قضايا الثقافة فى هذا العصر ، هى قضية الامن الثقافى العربى ، فى مفهومه الايجابى القائم على بناء الثقافة العربية وتنميتها ، وترسيخها عضويا ووظيفيا فى نسيج الحياة العربية، انفتاحا على الذات ، غنى وأصالة ؛ وحفاظا على خصائصها ، وتفتحا على العالم مشاركة مسؤولة .

هذا الى جانب تصديها ، لكثير من مسائل الثقافة تشريعا وتنظيما فى مجالات السياسة والسعى والتنسيق وبناء المؤسسات والتى هى من هموم الثقافة مقومات ودورا ، وأبعادا ، وعلاقات .

أيها الاخوة ، انكم تتهيئون فى دورة مؤتمركم هذه ، لدراسة ، الخطة الشاملة للثقافة العربية ، وهو هدف ظل حلما غاليا للامة العربية ، ولقد قرر مؤتمركم فى دورته الاولى فى عمان ، التحول من مفهوم السياسة الثقافية الى مفهوم الخطة الشاملة لتنمية الثقافة العربية فى داخل الوطن العربى وفى خارجه .

وفى عام 1978 قرر المؤتمر العام للمنظمة دعوة المدير العام الى القيام بوضع استراتيجيات لكل من قطاعى الثقافة والعلوم ، بعد موافقته على استراتيجية تطوير التربية العربية .

وفى عام 1979 تعرضت المنظمة ، على اثر الاوضاع العربية ، الى الانتقال من مقرها الى تونس ، وكان لابد من بعض الوقت ، لاعادة بنائها ؛ وهكذا صدر قرار المدير العام فى عام 1981 بتسمية رئيس وأعضاء اللجنة القومية ، للخطة الثقافية الشاملة ؛ وقد ضمت اللجنة نخبة صالحة من رجال الفكر والثقافة

العرب ، فى مختلف المجالات ، مبدعين ومنظمين ومسؤولين ، وأسندت رئاسة اللجنة الى معالى الاستاذ عبد العزيز حسين ، والامانة العامة الى الاستاذ الدكتور شاكر مصطفى ، وظلت اللجنة تناضل ، أربع سنوات فى جبهات الثقافة العربية ، فى مجالاتها المختلفة ، وأبعادها المتعددة ؛ وعلاقاتها المتداخلة ؛ وقضاياها الكثيرة ، فى عطاء كريم ، وجهد موصول ، فى ظل رعاية منكم ، ومن أجهزة المنظمة دائمة • ان حجم العمل الذى أنجز ، ونوعه ، وتنوعه ؛ ما كان له أن يكون ، لولا الايمان العظيم ولولا الارادة الشامخة ، ولولا القدرة الخلاقة ، ولولا التعاون الكبير .

وهكذا استوى هذا الحلم ، عملا قوميا صالحا ، وامتلكت الامة لهذه الخطة الثقافية الشاملة ؛ وثيقة فكرية ، ودليل عمل قومى فى مجالات الثقافة العربية• وان المنظمة تضعها باعتزاز أمام مؤتمركم ، لتتخذوا فيها قراركم التاريخى ، تمهيدا لعرضها على المؤتمر العام السابع للمنظمة لاقرارها ، خطة قومية فى اطار الخطط القطاعية للامة العربية •

لقد حددت اللجنة منهجيتها فى وضع الخطة وحددت المنطلقات النظرية أهدافا ومبادىء ومجالات واستعانت بوسائل عمل متعددة ، ومنها تراث المنظمة فى سعيها الثقافى على امتداد خمسة عشر عاما ، فيما أصدرته من توصيات المؤتمرات واللجان والندوات ، وما انتجت من كتب ووثائق ، بما فى ذلك دراسات مؤتمراتكم ودراسات اللجنة الدائمة للثقافة العربية ؛ والاستعانة بجهد اليونسكو فى شأن التخطيط الثقافى ، اضافة الى ما أبدعه المفكرون والعلماء العرب فى مجال تنمية الثقافة ، فى المؤتمرات والندوات المتصلة بالمواضيع الثقافية والتى عقدت فى أنحاء الوطن العربى ، الى جانب الاستفادة من نتائج جهود الادارة الثقافية فى الامانة العامة لجامعة الدول العربية ، فى خلال ربع قرن ، قبل قيام المنظمة •

وكان على اللجنة أن تجمع معلومات عن واقع الثقافة العربية ، وقضاياها ، فعمدت الى الاستعانة فى الجانب الكمى ؛ باستبيانات نوعية وجغرافية ، شملت كل مجالات الثقافة فى كل قطر عربى ، الى جانب انها اعتمدت أسلوب الندوات النوعية لدراسة القضايا الثقافية دراسة كيفية ، فعقدت سبعا وعشرين ندوة شارك فيها قرابة (600) خبير فى مختلف جوانب التخصصات التى طرحت للدراسة فى كل الندوات التى قدم فيها واحد وستون بحثا . ولقد كانت الافكار التوجيهية والتوصيات الصادرة عن هذه الندوات من المصادر الحية ، فى أعمال اللجنة .

هذا ، وسوف يتولى الاخ الاستاذ الدكتور شاكر مصطفى الامين العام للجنة الخطة الشاملة ، تقديم الخطوط الاساسية للخطة ، أهدافا ومبادىء ووسائل الى مؤتمركم الموقر •

وانى أنتهز هذه الفرصة التاريخية لاتقدم بالشكر مستحقا لمعالى الاخ الاستاذ عبد العزيز حسين رئيس اللجنة ، وان أنوه بما قدمته دولة الكويت من عون كريم للجنة ولاعمالها تعاونا ورعاية ، والى الاخوة الكرام أعضاء اللجنة ، والى الاخ الاستاذ الدكتور شاكر مصطفى الامين العام للجنة ، على ما أنجزوا من عمل جليل لامتهم بالقدرة والمسؤولية والعطاء •

وفى هذا المقام ، فانى أترحم على روح المغفور له الاستاذ شفيق الكمالى عضو اللجنة الذى لقى ربه ، وقد كان ، من أهل المشاركة والفضل فى أعمال هذه اللجنة ؛ رحمه الله فى الابرار ، لقاء ما قدم لامته من خير •

السيد الرئيس ،

ان وثائق الدورة التى بين أيديكم لتحمل صورة للموقف التنفيذى لقراراتكم وتوصياتكم فى دورات مؤتمراتكم السابقة ، وعرضا لنشاط منظتكم المتصل بها ، فى المجالات المختلفة فى قطاع الثقافة • على أن هذا جهد مشترك بينكم وبين المنظمة ، فهو ثمرة تعاون أصحاب المعالى الوزراء ، وكبار معاونيهم وما يولونه من عناية للثقافة ، وثمرة الجهود التى بذلها المفكرون والعلماء والخبراء العرب المتعاونون مع منظمتكم فى مشروعاتها المختلفة •

فى الوثائق التى بين أيديكم موضوعات يتصل بعضها بقراراتكم السابقة ، وبعضها يقترح موضوعات جديدة فى مجال اقامة المؤسسات الثقافية القومية الكبرى ، والدراسات المتصلة بصيانة التراث وتجليته ، وفى التشريعات الثقافية ، اضافة الى وثيقة الخطة الشاملة للثقافة العربية • وفى مداولاتكم حولها ومدارساتكم لها ؛ بالخبرة البصيرة ، والالتزام القومى ، والموضوعية العلمية ، ما يعين ، كالعهد بكم ، على الوصول الى القرارات الرشيدة •

السيد الرئيس ، لقد عمرت الدورة السابقة بتعاون قومى واسلامى وافريقى ودولى مثمر ووثيق ، مع المنظمات الهيئات هو محل الاشادة والتقدير •

وأود هنا أن أشيد بذلك التعاون الوثيق ، والتكامل العضوى مع الامانة العامة لجامعة الدول العربية ، واجهزتها ، ومع المنظمات العربيات المتخصصة الشقيقة ، وأن أنوه ، بصفة خاصة بالجهد المقدر لمئات المفكرين والعلماء والخبراء من أفراد العشيرة الثقافية والعلمية العربية ، الذين أعانوا على تنفيذ مشروعات المنظمة ، فنفعوا بها أمتهم • وانه واجب من الواجب ان أشيد بما قدمته وتقدمته اللجنة الدائمة للثقافة العربية من عون قادر للمنظمة فى مجال اختصاصها وبخاصة فى الاعداد لدورات مؤتمركم ؛ والشكر يتجه الى رئيس اللجنة سيادة الاخ الاستاذ الدكتور محمد يوسف نجم ، وزملائه من المفكرين المسؤولين فى اللجنة ،،

د• محيى الدين صابر

شعراء تشيكيون

تعريب : محسن بن حميده

فيكتور ديك شاعر وقصصي ومسرحي وسياسي جعل شرف الامة ، ومجدها فوق كل شيء وكان له الدور الكبير في تربية الشعب التشيكي وعلاجه من ضعفه وعيوبه وخياناته ومسكنته مناديا بالاستقلال القومي ومدافعا عن مبادئه في الحرب من أعماق السجن « بفيينا » حيث كان معتقلا « ببرج الموت » .

وعندما أطلق سراحه عند نهاية الحرب العالمية الاولى عاد الى وطنه المتحرر وشارك في المجلس التشريعي ثم في البرلمان بمجلس الشيوخ وكان فيكتور ديك عضوا بالمجمع التشيكي ورئيسا للجمعية الوطنية للادباء .

من مؤلفاته الكثيرة نذكر :

قوة الحياة (1898) ـ غرور (1900) ـ أهاج وتهكمات (1905) ـ قصص قريتي (1910) ـ أرياف مفقودة (1914) ـ خطى ثقيلة وخفيفة (1915) ـ ليالي الوهم (1917) ـ نوافذ (1921) ـ الموجة التاسعة (1930) ـ

حديث الارض

كُنْتُ لَكَ أُمًّا قَاسِيَة
كُنْتُ أُطْعِمُكَ خُبْزاً يَابِساً
فَمَا كُنْتُ أُهَدْهِدُ الطِّفْلَ الرَّضِيعَ
إِنَّمَا كُنْتُ أجْرَحُ الرَّجُلَ
عِنْدَمَا فَتَحْتَ لِلْمَرَّةِ الأُولَى عَيْنَيْكَ المَذْهُولَتَيْنِ
كَانَ يَمْتَدُّ أَمَامَكَ أُفُقٌ حَزِين
وكُنْتُ أتَحَدَّثُ عَنْ ضَرْبَةِ أَصَابُونِي بِهَا
فَمَا اسْتَطَاعَ مُرُورُ الزَّمَنِ أَنْ يَجْعَلَنِي أَغْفِرُهَا

* * *

كَانَ يَنْقَضُّ عَلَيَّ وَعَلَيْكَ طِلٌّ ثَقِيل
كُنْتُ أُمًّا قَاسِيَة وَكُنْتَ أَنْتَ ابْنًا قَاسِيًا
فَمَا رَفَعْتَ سَاعِدًا دِفَاعًا عَنِّي
وَمَا فَكَّرْتَ قَطُّ فِي البِرِّ بِي
وَعِنْدَمَا كَانَتِ الرِّيحُ تُزَمْجِرُ وَيُطَقْطِقُ الزَّمْهَرِيرُ

(*) «حديث الارض» هو القصيد العجيب الذى أرسله الشاعر الى الامة التشيكية من أعماق سجنه فى «برج الموت» بفيينا وقد نشرنا منه ـ بمناسبة الظرف ـ قسما فى العدد الثنائى 29 ـ 30 من مجلة المباحث (أوت سبتمبر 1946) المزدان صدره بصور الخمسة من محررى المباحث الذين وقع اعتقالهم يوم 23 أوت 1946 فى جملة الوطنيين التونسيين الذين شاركوا فى المؤتمر الوطنى المشهود وهم الاساتذة علالة البلهوان والباهى الادغم والبشير فوشة والدكتور الطاهر بن سلطان والشيخ الفاضل ابن عاشور ـ وننشر اليوم الترجمة الكاملة للقصيد .

مَا كُنْتَ تَسْمَعُ صَوْتِي
مَعَ أَنِّي كُنْتُ أَتَحَدَّثُ إِلَيْكَ مُشَاهِدَةً
غَمَّكَ وَبُؤْسَكَ يُلاحِقَانِكَ إِلَى الأَبَدِ
وَعِنْدَ ذَاكَ خَاطَبَكَ ثَغْرِي الصَّامِتُ قَائِلا
خُذْ مَا هُوَ لَكَ

* * *

إِنِّي أَحْمِلُ عِبْءاً ثَقِيلا
وَلا أَدْرِي هَلِ القَادِمُ فَرَحٌ أَمْ هَوْل
فَأَنَا الأُمُّ أَتَوَسَّلُ إِلَيْكَ يَا بُنَي
أَنْ ذُدْ عَنِّي وَاحْمِنِي وَاسْمَعْ نِدَائِي
أَنْ ذُدْ عَنِّي وَاحْمِنِي وَدَعْ الدَّوِرَ تُحْرَقْ
وَالحُقُولَ تُدَاسُ وَتُتْلَفْ
فَغَدَا سَيَبْزُغُ النَّبْتُ مِنْ بُذُورٍ جَدِيدَةٍ
لَقَدْ كُنْتُ أُعِدُّ لَكَ نَصِيبَكَ يَا بُنَي
وَنَصِيبُكَ اليَوْمَ جَاهِزٌ يَا بُنَي
فَذُدْ عَنِّي وَاحْمِنِي فَكُلُّ شَيْءٍ رَهْنُ سَعْيِك
فَإِمَّا أَنْ تَغْرَقَ السَّفِينَةُ
وَإِمَّا أَنْ تَصْحَبَهَا إِلَى المِينَاءِ ــ السَّلامَة

* * *

لا تَتَهَاوَنْ بِحَدِيثِي يَا ابْنِي وَإِيَّاكَ
أَنْ تَبِيعَ نَصِيبَكَ بِصَحْنِ عَدَس
وَاعْلَمْ أَنَّكَ إِنْ تُهْمِلْنِي فَلَنْ أُهْلِك
لَكِنْ كَمْ شَبَحاً سَيَبْرُزُ لَكَ لَوْ عَلِمْتَ !
وَكَمْ مَرَّةً سَيَعْقُدُ أَبْنَاؤُكَ جُمْعَهُمْ نَاقِمِين !
وَكَمْ مَرَّةً سَيَكُونُونَ لَكَ لاعِنِينَ !

لَنْ أَهَابَكَ لأَنِّي أَبَدِيَّهْ
غَيْرَ أَنِّي سَأَقْضِي الحَيَاةَ فِي تَعَجبٍ مَرِيرٍ
كَيْفَ أَمْكَنَكَ نِسْيَانُ نَصِيبِك ؟
كَيْفَ أَمْكَنَكَ النِّسْيَانُ وَأَطَقْتَ الخِيَانَه ؟
وَكَيْفَ يَسْمَحُ المَرْءُ لِنَفْسِهِ فِي حَالِ وَعْيٍ
أَنْ يَنْقَادَ إِلَى الخِذْلاَنِ وَيَقَعَ فِي الجُبْنِ ؟
أَنْتَ حُرٌّ فِي أَنْ تَخُونَ نَفْسَكَ
لَكِنْ لَيْسَ مِنْ حَقِّكَ أَنْ تَخُونَ خَلَفَكَ مِنْ وُلْدِك
كَيْفَ رَضِيتَ بِالاسْتِسْلاَمِ مَا دَامَ بِكَ نَفَسُ الحَيَاة ؟
فَمَا الَّذِي كُنْتَ تَخْشَى ؟
وَالمَوْتُ نَفْسُهُ مَا هُوَ
أَمَا عَلِمْتَ أَنَّ المَوْتَ هُوَ الرُّجُوعُ إِلَيَّ ؟
إِلَيَّ أَنَا أُمِّكَ الأَرْض
أَنَا أَفْتَحُ لَكَ ذِرَاعَيَّ
فَهَلْ تُطِيقُ احْتِقَارِي
هَلُمَّ بُنَيَّ وَسَتَرَى ثَدْيَ الأُمِّ مَا أَعْذَبَهُ !
عِنْدَ مَنْ أَدَّى مَا تَنْتَظِرُهُ مِنْهُ
أَنَا أُمُّكَ أَتَضَرَّعُ إِلَيْكَ
أَنْ ذُدْ عَنِّي وَاحْمِنِي يَا بُنَيِّ
وَإِلَى الأَمَامِ وَإِنْ كَانَ السَّيْرُ شَاقًّا وَرَاءَهُ المَوْت
وَاعْلَمْ أَنَّكَ إِنْ تُهْمِلْنِي فَلَنْ أَهَابَكَ
وَإِنَّمَا تَهَابُكَ أَنْتَ .

تعريب : محسن بن حميده

(من ديوان نوافذ)

الشعر الشعبي بين الواقع والخيال

بقلم : الطاهر قيقه

أعجب دائما بقدرة الشاعر فى حالات الاشراق والتجلي على تجاوز الواقع الذى يهز مشاعره لكشف الستار عن واقع من نوع آخر أوسع وأرحب هو من صنع وجدانه وخياله التصق بالنفس حتى يختلج بخلجاتها .

وهذا الشنفرى يصف لنا بدقة فى قصيدته الشهيرة : « لامية العرب » حياة الضياع والصعلكة والتمرد التى يعيشها بين الذئاب الجائعة الضارية التى تقاسمه محنته وضياعه فى الخلوات المجدبة التى تجعل من البحث عن القوت عملية منهكة .

واذا به يلجأ الى أعالي الجبال بعد الطواف المضني فى الصحاري ليعيش عند الاصيل لحظة من الدعة والطمأنينة والأنس تمحو فى نفسه ساعات الانقباض والوحشة والاغتراب : فيقدم لنا مشهدا بديعا نرى فيه الصعلوك الأشعث الأغبر قابعا تحيط به إناث الوعول السود فى صفرة تتهادى فى خطاها فيخيل اليه أنها عذارى لبسن أثوابا طويلة يطفن حول صنم من الاصنام . وتشهد نفسه عملية تحول عجيبة عندما يفطن بأن الاراوى وهى إناث الوعول لا ينفرنه فيحس أنه تحول الى وعل طويل القرن توسط الاراوى مزهوا مختالا .

مشهد هادىء ساكن فى أعالي الجبال يضمخه ذهب الاصيل المذاب . عواء الذئاب الجائعة تشق الفلاة عدوا وغارات الشنفرى المفزعة فى ليالى الشتاء المظلمة الباردة تبدو تافهة وقد انتهى به المطاف وذاق النعيم :

ترود الاراوى الصحم حولي كانها عذارى عليهن الملاء المذيل
ويركدن بالاصال حولي كانني من العصم أدفى ينتحى الكيح أعقل

وهذا عدي بن زيد يتأمل فى صروف الدهر فى قصيدة حزينة ويلاحظ أنه لا يوجد على سطح الارض انسان فى مأمن من سطوة الايام ولو بلغ أعلى الدرجات فى العزة والثروة والفلاح وان الموت فى جميع الحالات قاهر للجميع . وقبور الملوك العظام تملأ الرحب . فيعود الى نفسه ويرعوى متحدثا على لسان النعمان بن المنذر ملك الحيرة . وتبرز عند ذكره قبور كل من ماتوا وكان لهم فى الحياة دوي وشهرة صورة أوراق الخريف التى تتلاعب بها الرياح وهى صفراء ذاوية خفيفة لا تقاوم :

فارعوى قلبه وقال فما غبـ ـطة حي إلى الممات يصير
ثم بعد الفلاح والملك والنعـ ـمة وارتهم هناك القبور
ثم صاروا كأنهم ورق جـ ـف فالوت به الصبا والدبور

إن الشعر الشعبى التونسى قادر فى بعض الاحالات على بلوغ هذه القمم من الابداع الفني .

سآتى ببعض الامثلة انتقيها مما جمعه والدى المرحوم عبد الرحمان ثيقة فى الربع الاول من هذا القرن .

أبدؤها بصورة حزينة يرسمها خيال شيخ يلاحظ واقع ما آل اليه . انه أصبح يمشى منحنيا ومتوكئا على عصا . فيبرز من وراء ذلك الواقع المعيش مشهد حقل من الشعير أو الحنطة انعقفت سنابله لان ريحا شمالية غربية آتية من المناطق الجبلية فى البلاد التونسية وهى أعنف الرياح قد جعلت سطحه وأمالت أعالي سنابله :

الشيب ورائه رجلي مع العكاز واوا فى ثلاثه
حتى زرعي طاب وبياض سفافه عقف من الارقاب والريح جبالي

صورة هذا الحقل الذى تهب عليه ريح عاتيه وقد نضجت حبوبه فابيضت أعالى سنابله صورة تسكن أعماق النفس سجلها الشاعر مرارا فى حياته فتجلت فى لحظة من التأثر العميق فى اتساعها ورحابتها معبرة بالصورة عن حالة نفسية معينة . هى صورة نفسية مخزونة اذا صح هذا التعبير تقابل الصورة الواقعية الدقيقة التى رسمها فى البيتين الاولين . وتتجاوب معها دون معاكسة لانها لا تتطابق مع الصورة الواقعية فى جزئياتها وتفاصيلها بل هى

وليدة جزئية واحدة لها وزنها وابعادها وهى انحناء البدن وتقويس اعلاه . لقد لعبت تلك الجزئية الموحية فى هذه العملية شبه الكيميائية دور مطلق شحنة متفجـرة .

وانتقل الآن الى الغزل الشعبى عندما يسمو الشاعر الى مستوى الكشف والتجلي وأختار مقاطع تصف شعر الحليلة وعينها وقوامها متحولا من حالات الهدوء والسكينة الى الحركة البطيئة الفاتنة ثم الحركة السريعة الضارية .

الشعر الاسود الكثيف المتدلي على جانبى بدن المرأة يوحي بالثقل والهدوء والسكينة فيثير فى نفس الشاعر صورة صحراوية هادئة جميلة . وهى صورة الظليم أى ذكر النعام يحضن ادحى انثاه . والادحى هو بيض النعام اذا كان فى الرمل كومة سوداء ضخمة جاثمة دون حـراك فى فضـاء شـاسع مـن الرمـال البيضـاء :

وغثيـت محـدر زنـزي خليقـــه قـطـــاطـي دقيقـه
ظليم بسكرى سـالك عل طريقـه كـارك عـلى مـدحـاه

تعودنا فى الشعر الفصيح والشعبى العاديين بتشبيه نظرة المرأة بالنبل ترسله فيصيب حتى أصبحت الصورة مبتذلة فقدت تأثيرها لكثرة استعمالها.

منطلق هذا الصنف من الصور هو الفزع الذى يشعر به الانســان عندمـا تطلع المرأة الجميلة الفاتنة عليه وترميه بلحاظها . فعنـد ذلك تحمـر وجنتـاه تارة ويصفر وجهه تارة أخرى وتصطك ركبتاه وتعلو عينيه غشاوة ويعجز عن الكلام ويهم بالفرار على حد قول أحد شعراء يونان .

فالمرأة فى تلك الحالات تبعث فى النفس فزعا يشبه فزع الانسان اذا شاهد جيشا زاحفا . يقول صاحب « نشيد الاناشيد » فى التوراة :

أنـت جميلـة يـــا حبيبتـــى كـجـيـش زاحـف

فالشاعر الشعبى فى حالة الحب الصادق الذى يستولي على النفس كلهـا يرى عندما ترميه المرأة بنظرتها مدفعيه (طبجيا) واقفا على برميل البـارود يقرب المشعل من جعبة المدفع لاطلاق القذيفة :

والعيـن مدفـع كسحـوا بـاروده كـواه طبجي واقـف على برميلـه

مشهد حربى تجاوزه الزمن لان المدافع أصبحت لا « تكوى » بهـذه الطريقة لكنه حافظ على قوة ايحائه .

أما قوام المرأة أو قدها عندما تقبل علينا فانه أوحى بصور وتشابيه متداولة معروفة . فهى تشبه بشجرة عالية مستقيمة لينة تتثنى وأكثر الاشجار تداولا هو شجر السرول لانه يمتاز بتلك الصفات ، اما التشبيه بالغصون الناعمة اللينة كغصن البان فحدث ولا حرج .

فالصورة النباتية تبرز عندهم عندما تميس المرأة دون ابداء الخيلاء والسطو . عبقرية الشاعر الشعبى اذا كان موهوبا وتناول هذه الصورة تكمن فى قدرته على بث الحركة والحيوية فيها . فالمرأة تتمايل وتميس فتوحي بلين جسمها كشجرة سرول هب عليها النسيم . ولكن اذا هبت عليها ريح وهى مغروسة على ربوة فى « قصر » بدوي فان تمايلها يوحي بالعنف :

خد صالحه برق عقب الشهر زهى فى النظر
قد صالحه سرولة فى قصر
خد صالحه برق وفين يليح رعده كسيح
قد صالحه سرولة يوم ريح

واذا كانت الريح عاتية فان شجرة السرول تثير الاعجاب لانها تغالب الريح فتسترجع كلما امالتها هذه استقامتها لحين فترى من فوق الجدار جدار القصر أو جدار البستان :

القد سروله على العين مثلناها رهيف عودها يجواد فى التمثيله
هفاها نسوم الريح لين تكاها لواها رقت فوق الجدار طويله

ولكن طاوع المرأة على الرجل الذى يهيم بها قد يثير فى الوجدان معانى العظمة والاحتفال .

وفى هذه الحالة نرى الشاعر الشعبى يشبهها بالسفينة العائمة فى الماء . والمشاهد البحرية نادرة فى الشعر العربى عموما وفى الشعر الشعبى أيضا .

ولكن لا يشبهها باية سفينة لان الغرض ليس فقط الاشارة الى حركة معينة للمرأة عند قدومها وهى التمايل بل أيضا الى ما تبعثه فى النفس من عواطف مختلفة وأهمها الاجلال والفزع .

فهى اذا تهادت سفينة مستطيلة ذات مجادف مما يستعملها المجاهدون فى البحر الذين سموا بالقراصنة . وكان السلاطين العثمانيون يستخدمون ذلك النوع من السفن لخفتها وسرعتها وذلك لحمل الهدايا وفرمان الولاية لباي تونس عند توليه شؤون الايالة :

القد قرصان داخل غريقه وحامل وسيقه
للباي جاب الحكم والوثيقه م الى كبير سماه

وعندما تكون المحبوبة ذات عنف وسطوة ودلال يعبر الشاعر الشعبى عن تأثره بتقديم مشهد عودة مظفرة من غزوة قام بها قرصان من قراصنة تونس وهو يعلن عن فوزه باطلاق نيران مدافعه وهو داخل الى الميناء :

القد مركب محرب زاير بجور الزخيمه
بمدافع الكور يضرب م الروم جايب غنيمه
للوكر روح مسرب هكاك هزعت فطيمه

هكذا طلعت فطيمة (تصغير فاطمة) فجأة . وفى المفاجئة اثارة لخوف الشاعر فيرى أمامه مشهدا حربيا كان عاديا فى عهد من العهود .

تلك أمثلة اقتنيتها تبين أن الواقع يدعو الى تجاوزه اذا عثرنا على العنصر الملئ شحنة الذى يختفى وراءه ويقدر أن يولد واقعا من نوع آخر أعمق وألصق بالنفس .

الطاهر قيقه

تونس ..

شعر : الحبيب الهمامي

- 1 -

حمَامٌ على الروح يحنُــو
واندلس تتعـرّى
لفصل
يجُـرّ المسـرّات تلـو المسرّات
عادَ دَمِي مِنْ حَرَائِقِهِ
حَامَ حَوْلَ هبائي البهَام
وأيقظني الضوْءُ مِنْ مَوْتِيَ المُرّ
قُلْتُ : ومَائِي عَلَى نبْرَتِي
ذَهَبَ الزبَدُ الزمَنِي جُفَاء
أرَى الشيءَ أجْمَلَ ممَّا أرَى
أسْمَعُ الآنَ مَا سأرَاهُ
وأقرأُ أسْمَاءَ مَنْ سيَجيئُونَ مِنْ كوْكَبٍ آخَرٍ
ليَقُولوا : — المدينة أمّ
لَهَا ألف ثـدي وثـدي
وهـذا الـزحـام ،

خليط يتـامى

- 2 -

نَهَضْتُ كضوءٍ تناسَى مَواعيده ، فجأَة ،
ايقَظَتْهُ التي لا تنام زخارفها ..
نهضتُ
نَفَضْتُ رماد العصور عن القَلْب
هذا الصباح اصطفاني
وَهذا دمي يترشفُ قهوته
تحت تمثال سيدنا : ابن خلدون ،
مَا أَعْمَقَ اليَأسَ فِي خَطْوَتِي !
أَهُوَ الخَوْفُ ..
مِنْ غَابَة الضَوْء ؟
هذي المِيَاهُ وُحُوش
تُفَتِّحُ أَنيابَها وتَعَضُ عَلى الرّوح
يُفْتَحُ جُرْحٌ
أسَمِّيه : باب المسرّاتِ
أَوْ أُفقا للجُنُونْ .
وَمَا أَعْمَقَ اليَأْسَ في خطوَتِي !
أهُوَ الخَوْفُ
مِنْ مُدُنٍ فِي القريب الجَميل
تهيءُ لِي حُلُمِي ، واشْتِعَالِي الطَّلِيقْ
وتَكْتُبُ فِي كَبِدي
مَا رأيُ ابن رشيقٍ على قبره
كُتبا وملائكة
ورحيق نَبي ،

وما أعمق اليأسَ في خطوَتِي !
إنَّهُ الخَوْفُ
من هذه المعجزات التي تتعرّى
فيُصْغِي دَمِي لدَبيب غرَائِزهَا
ويهيِّءُ شَهْوَتَهُ
فبأي سؤال أجيبُ وُقُوفِي علَىَ دَهْشَتِي ؟
أتهَجَّى صيَامَ خُطَاي

— 3 —

قُلْتُ : لماذَا المَدينَةُ أوْسَعُ مِنْ قارَة ؟
حِينَ أكْتُبُهَا
وَا جُنُونِي
يُفَتِّحُ خُطْوَتَهُ فِي عُرُوقِي
وَهذه تُونس
حمالةُ المَاء
لا بدّ أن ألبس البحرَ
كي أتَقَرّى الأزقة والطرقات
ولا بدّ أنْ ألْبَسَ الشمْسَ
كي أتَفَهّمَ أسرَارَ
باب سويقةَ
باب الجزيرةِ
باب المنارةِ
باب الجديدْ
باب البنات اللواتي دخلنَ إلى جسدي فرحا أخضرَ

الحبيب الهمامي

تطور المفهوم لوظيفة الشعر عند أحمد شوقي

بقلم : عبد العزيز بن حسن

تعرض أحمـد شـوقى فى ديوانه لمواضيع وأغراض عديدة ومختلفة منها ما يدخل فى باب المدح والرثاء على النحو المعروف فى تاريخ الادب العربى ، ومنها ما يتعلق بالمناسبات الظرفية كقصائد التهنئة أو التى كان ينظمها اثر أحداث اجتماعية وثقافية تشهدها بلاده ، ومنها ما يتصل بتاريخ مصر القـديم والحديث ، وبالتقلبات والاطوار السياسية التى عاشها الشعب المصرى فى أواخر القرن التاسع عشر ، وفى مطلع القرن العشرين ، أيام كان فى صراع مع الاستعمار البريطانى وهيمنته .

وليس من شك فى أن هذه الاغراض الاخيرة ، أى التى تتعلق بالاحـداث السياسية وبتاريخ مصر القديم والحديث ، هى التى تشكل عنصر التجديد والطرافة فى ديوان أحمـد شـوقى ، بالقياس الى الاغراض التقليدية المطروقة المعروفة ، مثل المدح والرثاء ، واللهو ، وشعر المناسبات ، بحيث أن تلـك الاغراض هى التى تعرف ـ أكثر من غيرها ـ بشخصية الشاعر وبنظرته الى وظيفة الشعر ومفهومها عنده .

وان حاولنا احصاء القصائد التى تشتمل فى أهم محتوياتها على مواضيـع متصلة بالتاريخ والسياسة ، وهى التى تفتح للشاعر مجالا للتعبير عن أفكاره وعن مواقفه الشخصية ، فانا نجد فى الجزء الاول من الشوقيـات (1) أربـع

---

(1) ديوان أحمـد شـوقى الصادر تحت عنوان « الشوقيات » الطبعة الثانية المكملة ـ 4 أجزاء ـ بتقديم محمد حسن هيكل ـ القاهرة 1951 ، وهى الطبعة المعتمدة فى هذا البحث .

قصائد في تاريخ مصر القديم : وهى « كبار الحوادث بوادى النيل » ـ و « أبو الهول » ـ و « توت عنخ آمون » ـ و « ذكرى كرنارفون » . ونجد في الجزء الثانى قصيدة أخرى بعنوان : « أيها النيل » ، وجميع هذه القصائد وهى طويلة ، تتحدث فى معظمها عن الحضارة الفرعونية .

أما تاريخ مصر الحديث ، فان الشاعر قد تعرض له فيما لا يقل عن خمس وعشرين قصيدة يغلب عليها الطول وغزارة المعانى ، كما أنه تعرض بالاشارة وبأكثر من الاشارة ، للاحداث التى عرفتها بلاده ، فى القديم والحديث ، فى كثير من شعره الاجتماعى وفى مراثيه ، وحتى فى المقطوعات التى نظمها للاطفال وتلاميذ المدارس وجعلها على ألسنة الحيوانات .

الا أن هذا الشعر كله بما يحويه من المعانى ، جاء مشتتا فى الاجزاء الاربعة من الديوان ، بل هو على غير ترتيب أو تبويب يعتمد النسق التاريخى ، وهو يفتقر الى بيان كاف يحدد بالتدقيق الظروف التى قيلت فيها كل قصيدة ، بحيث أنه ليس فى متناول القارىء للديوان فى طبعته الموجودة ، أن يتبين بما يستحسن من الوضوح والانسجام وجوه تفكير الشاعر وتطور احساسه ، ومواقفه ازاء تاريخ بلاده وما عرفته من أحداث مصيرية .

والسؤال المطروح هو : ما كانت وظيفة الشعر فى نظر أحمد شوقى ؟ وهل كان « أمير الشعراء » لا يخرج فى نهاية الامر عما هو معروف عند الكثيرين من أغراض المدح والرثاء ، واللهو وشعر المناسبات ، ويدخل فى ذلك ما قاله فى التاريخ والسياسة ؟ أم هل جاء بمفهوم جديد لوظيفة فنه ، وباتجاه جديد فى تصور دور الشاعر فى مجتمعه ؟ وهل يمكن أن نخرج برأى واضح فى هذا الشأن من أطوار حياته ؟

ولتحديد مجال البحث عما يقابل هذه التساؤلات من الاجوبة ، فانا نسوق هذه المقطوعات ، وقد قالها شوقى فى فترات مختلفة من حياته ، وفيها اشارات الى أفكاره ومواقفه الشخصية ازاء ما جد فى بلاده من أحداث .

يقول الشاعر فى الفترة الاولى من حياته ـ اى فى عهد شبابه وقبل أن يسافر الى فرنسا لطلب العلم ـ انه :

شاعـر العزيـز (2) ومـا بالقليـل ذا اللقـب

ويخاطب الخديـوى وآل بيته قائلا :

انتـم الظـلال لنـا والمنـازل الخصـب
لـو مدحتكم زمنـى لم أقـم بما يجـب

كان أحمد شوقى فى الايام التى قال فيها هذه الابيات ، قد أتـم دراسـة الحقوق فى مصر ، والتحق بقسم الترجمة ، وعرف بأنه شاعر الامير ، والابيات تدل على أنه أصبح شاعر القصر ، وانه انقطع لمدح الامير وآل بيتـه ، يعتـز بذلك ويفتخر ويعيش فى ظـل الاميـر و « يستلـم أذيالـه » كمـا يقـول شـوقى ضيـف (3) .

ثم ان الشاعر سافر الى فرنسا وأقام فيها مدة لطلب العلم ، واذا به بعـد رجوعه منها أصبح يتغنى بمجد مصر القديم فى عهد الفراعنة ، مثل قوله :

وملكنـــا فالمـالكـون عبيـــد والبـرايـا بأسـرهـم أسـراء
قـل لبـان بنى فشـاد فغـالى لم يجز مصر فى الزمان بنـاء
اجفـل الجن عن عـزائم فرعـ ـون ودانـت لبـأسهـا الآنـاء
اين كان القضاء والعدل والحكمـ ـة والـراى والنهـي والذكـاء

ويخاطب وطنه معبرا عن عاطفة جياشة :

احبـك مصـر من أعماق قلبى وحبـك فى صميم القلـب نـام
رهبتـك غيـر هيـاب يـراعـا وحبـك فى صميم القلـب نـام

ليس من شك فى أن الشاعر أصبح بعد رجوعه من أوربا يتغنى بنفس جديد ويعبر عن احساس جديد لم يصدر عنه أيام كان منقطعا للمدح .

---

(2) هو الخديـوى أمير مصر .

(3) انظر : شوقى ضيف فى كتابه « شوقى شاعر العصر الحديث » القاهرة 1953 .

وأقام شوقى فترة فى مصر وكانت له مواقف وطنية بمناسبة أحداث عرفتها البلاد فى صراعها مع المستعمر البريطانى ، حتى آل به الامر الى أن قضي عليه بالخروج الى المنفى ، واذا به يقول فى أول قصيدة ينظمها بعد رجوعه :

ويا وطنى لقيتك بعد يأس كأنى قد لقيت بك الشبابا
ولو أنى دعيت لكنت دينى عليه أقابل الحتم المجابا

ويقول أيضا فى قصيدة عنوانها « أبو الهول » :

اليوم نسود بوادينا ونعيد محاسن ماضينا
ويشيد العز بأيدينا وطن نفديه ويفدينا

وهكذا يبدو واضحا من المجموعات الثلاث التى أوردناها أن شوقى كان فى الفترة الاولى من حياته شاعر الامير يتكسب بمدحه ويعيش فى برج عاجى تحت ظله ؛ ثم انه ظهر فى شعره نفس جديد بعد رجوعه من فرنسا ، حيث أصبح يلهج بمجد مصر ويعبر عن احساس وطني قوي ؛ وتأكد ذلك النفس الجديد ونما بعد عودة الشاعر من المنفى ، فاذا هو يهب قلمه لبلاده ويشيد بماضيها ويدعو لبناء مجدها من جديد .

ولعله يكون من المفيد أن نسعى فى ايجاز كبير الى توضيح الاسباب التى عملت فى تطور نظرة شوقى الى وظيفة الشعر ، وأن نتبين بأى العوامل تأثر الشاعر فى هذا التطور معتمدين فى ذلك على الاغراض الكبرى التى تعرض لها فى أهم قصائد ديوانه .

***

لم يكن أحمد شوقى فى الفترة الاولى من حياته ، أى عندما كان يدرس الحقوق فى مصر ، ثم لما التحق بقسم الترجمة ولما عين بعد ذلك موظفا فى خدمة « المعية السنية » الا شاعرا مداحا ، دامت به الحال على ذلك حتى الى سنة 1887 ، سنة سفره الى فرنسا لطلب العلم ؛ ولم يخطر له على بال طيلة تلك المدة كلها ، أن يسمو بمطامحه الى أعلى من أن يتخذ الشعر سبيلا للتقرب من الخديوى ، رغبة فى كسب المال والجاه والمنزلة والسعة فى الحياة ؛ وينطبق

عليه بالضبط ذلك الحكم الذى قرره هو بنفسه فى مقدمة ديوانه ، حيث يقول : انه « اتخذ الشعر تجارة اذا شاء الملوك ربحت ، واذا شاؤوا خسرت » .

ويوضح شوقى هذا الحكم فى نفس المقدمة فيقول :

« انى قرعت أبواب الشعر وأنا لا أعلم من حقيقته ما أعلمه اليوم ، (أى سنة 1898 ، وبعد رجوعه من فرنسا بست سنوات) ولا أجد أمامي الا دواوين للموتى ، لا مظهر للشعر فيها ، وقصائد للاحياء ، يحذون فيها حذو القدماء ، والقوم فى مصر لا يعرفون من الشعر الا ما كان مدحا فى مقام عال ، ولا يرون غير شاعر الخديوى صاحب المقام الاسمى فى البلاد؛ فما زلت أتمنى هذه المنزلة وأسمو اليها ... حتى وفقت اليها بفضل الله» (4) .

وهكذا فان شوقى ـ باعترافه الشخصى ـ لم يقل شيئا من الشعر فى هذه الفترة من حياته الا وهو من مثل ما وصفه ، حتى عرف بلقب شاعر الامير ، يمدحه وينتصر له ، ويعيش فى نعمة ظله و « يستلم أذياله » ؛ بل انه لم يلتفت طيلة تلك المدة الى أحوال شعبه ، لا فى حاضرها ، ولا فى ماضيها ، والحال أن تراث مصر القديم قد اكتشف منذ عهد غير قليل ، اثر غزوة نابوليون بونابرت ، وأقبل عليه العلماء والباحثون ، وبرزت حضارة مصر الفرعونية ساطعة من طلاسم المعابد والاهرام والمصطبات ، ومن نقوشها وتصاويرها الرائعة المذهلة ؛ هذا من جهة ، ومن جهة أخرى ، فان تدخل الدول الاوربية فى الشؤون السياسية المصرية قد اتسع فى عهد شباب شوقى وتفاقم أمره الى درجة أن بريطانيا وفرنسا قد فرضتا على السلطان العثمانى عزل الخديوى اسماعيل سنة 1879 ، وتنصيب ابنه توفيق مكانه ؛ وضجت مصر بذلك ، وتجمعت مقاومة الشعب المصرى للاستعمار البريطانى حول زعامة عرابى باشا ،فاندلعت الثورة العرابية وآلت الى خيبة مرة ، حيث هزم عرابى باشا فى معركة التل الكبير سنة 1882 ، ونفي هذا الزعيم الوطنى الفذ ، وفرضت بريطانيا حمايتها على مصر ، وعينت « اللورد كرومر » مندوبا ساميا لها يتصرف فى سياسة البلاد كما شاء فى الداخل والخارج .

ولا مناص حينئذ من أن نستخلص مما سبق أن شوقى كان قبيل سفره الى فرنسا سنة 1887 قريب العهد بهذه الاحداث الجسيمة الماسة بمصير بلاده ؛

---

(4) الديوان ـ مقدمة الطبعة الاولى ـ القاهرة 1898 .

وكان يعرف أن مولاه الخديوى توفيق هو نفسه الذى رضخ للحماية البريطانية ورضي بها ؛ وكذلك فانه لا يعقل أن لا يكـون شـوقى مطلعـا ـ قليـلا أو كثيرا ـ على ما برز الى النور فى الصحف والمتاحف ومختلف المنشورات من تراث مصر القديم ومجدها التليد ، وبالرغم من كل ذلك فإنه لم يكـن يفهـم للشعر وظيفة ولا يجد له وحيا ، الا فى المدح والرثاء واللهو والمناسبات ، مثل عيد ميلاد الامير ، وعيد جلوسه على العرش وما شاكل هذا ، وان التمسنا له عذرا فلا نجد له شيئا من ذلك الا فى حداثة سنه ، التى لم تكن آنذاك تـزيد على العشرين .

***

سافر شـوقى الى فرنسا لطلب العلم وأقام فيها خمس سنوات ، واذا به يقول عن هذه الفترة من حياته . فى مقدمة الطبعة الاولى لديوانه :

« ثم طلبت العلم فى أوربا ، فوجدت فيها نور السبيل من أول يوم ، وعلمت أنى مسؤول عن تلك الهبة التى يؤتيها الله ولا يؤتيها سواه ، وأنى لا أؤدى شكرها حتى أشاطر الناس خيراتها التى لا تحد ولا تنفد ... » .

والمفهوم من هذه القولة أن شـوقى تأثر بالمحيط الفكـرى والادبى الـذى وجده فى فرنسا ، وانه تأثر على وجه التدقيق بالثقافة الفرنسية وببعض رجال الادب الفرنسيين الذين كان صيتهم ذائعا فى ذلك العهـد ، فاصبـح واعيـا بمسؤولية خاصة لا تنفصل عن موهبة الشعر ، وأصبح موقنا بان له رسالة يجب أن يؤديها نحو شعبه .

ويتعين ههنا أن أسعى للتعرف على العوامل التى أثرت فى نظرة شـوقى الى وظيفة الشعر وحولت اتجاه موهبته الشعرية نحو خدمة الناس ليشاطرهم خيراتها الجزيلة .

يقول شوقى انه اثناء اقامته بفرنسا ، قد شغف الشغف كله بثلاثة شعراء فرنسيين على الخصوص وهم : لامـرتين (Lamartine) ومـوسي (Musset) وهوڤـو (Hugo) ـ وأنه كاد يفنى فيهم على حد قوله ؛ وقد قيل عنه انه كان يحفظ الكثير من أشعارهم ، ويحفظ حفظا على وجه التخصيص مجموعة قصائد «أسطورة العصور» (5) لـ «هوڤو» زعيم الحركة الرومنطيكية .

---

(5) هى مجموعة القصائد الشهيرة : (La légende des siécles)

وقد كانت الصحف والنوادى والتآليف الادبية زاخرة بشعر « هوڤـو » وبأفكاره واتجاهاته الادبية ، وبسائر آثاره ، اذ لم يمض على موته الا بضـع سنوات عندما حل شوقى بفرنسا ، فليس من شك فى أنه قد اطلع على أطوار حياة « هوڤـو » وعلى آرائـه فى الشعر والادب ، وعلى أهم آثـاره الشعرية والمسرحية والروائية ، وأنه تأثر بما قرأ وشاهد الى حد كبير حيث أنه يقول انه « وجد نور السبيل ... » .

والمعروف عن الشاعر الفرنسى الكبير ـ هوڤـو ـ أنه كان يعتقد اعتقادا قويا أن الشاعر الموهوب يضطلع برسالة نحو البشر ،اذ هو «الصدى الرنان» لما يحدث فى عصره ، باعتبار أنه يحس بما لا يحس به عامة الناس ويرى ما لا يرون ، ويتسع ذهنه وخياله لما لا يخطر لهم ببال ؛ ورسالة الشاعر الموهوب تتمثل فى أن يكون «المنار» الذى يهدى الناس سبيلهم ، وأن يكون رائـدهم نحو الجمال والنبل والرقي فى الحياة . وعملا بهذا المفهوم ، فقد عمد « هوڤو » الى نظم ملحمته الواسعة التى سماها : «أسطـورة العصـور» ، وحاصلها فى اجمال كثير أن الشاعر الفرنسى كان يعتقد أن البشرية سائـرة الى رقـيّ مستمر ، وأنها لم تزل من قديم العصور ترتقى الى ما يحقق لها المزيـد من الحرّية والعدالة ، والازدهار والتقدم والتحضر ؛ فتخير من تاريـخ مختلـف الحضارات التى عرفتها البشرية أعظم الاحداث التى تمثل هذه المسيرة المستمرة نحو التقدم ، وانتخب أكبر رجالاتها وراح يمجد كل ذلك ويشيد به ويتغنى ، ويضربه أمثالا للاجيال المقبلة ، ويعبر عنه بمـا أوتـي من البـراعة الفـائقة والعبقـرية الفـذة .

ثم ان « هوڤـو » كان قبل منتصف القرن التـاسع عشـر رجـل نظـام ومحافظة ، وبلغ به ذلك الى مناصرة حزب نابوليـون الثـالث والدعوة له ؛ ولكن ، عندما تبين له أن الامبراطور الفرنسى قد سطا على النظـم السياسية المتحررة ، وأقام محلها حكمه المطلق ، فانه خرج الى المنفى ، وأصبح من منفاه حامل لواء الحرية ، يندد فى شعره بالنظام الامبراطورى الجائر ويدعو الى الثورة عليه والاطاحة به . وليس من شك فى أن ما تقدم التذكير به من شخصيـة « هوڤـو » يمثل بالتحديد « نور السبيل » الذى يقول شوقى انه وجـده فى أوربا ، وأن فى ذلك تكمن الرسالة التى أصبح يعتقد أنه مسؤول عن تاديتها، بدليل أنه بعد عودته من فرنسا أصبح يلتفت الى تاريخ بلاده ومجدها ، والى الاحداث السياسية والمظاهر الحضارية التى عرفتها مصر فى الماضى والحاضر ،

فيستوحى من ذلك ما يهدى به الناس ويضرب لهم به الامثال ، ويدعوهم الى بعثه وتجديد صرحه ٠

***

رجع شوقى من فرنسا سنة 1892 ، ولم يلبث أن ظهر فى شعره ذلك النفس الجديد ، وعلى وجه التحديد فى قصيدته الشهيرة : «كبار الحوادث بوادى النيل» ٠

وقد أنشدها بمناسبة انعقاد مؤتمر المستشرقين فى جونيف سنة 1894 وأرادها بدون أى شك أن تكون أغنية ملحمية تخلد تاريخ مصر ومجدها وكبار الاحداث التى عرفتها ، من أبعد العصور القديمة الى عهد الخديوى توفيق وعهد الاحتلال البريطانى ، ويبلغ عدد أبياتها 290 بيت ، وهذه أهم خاصياتها :

حافظ الشاعر فى هذه القصيدة على النسق التاريخى ، فاستعرض كل أطوار تاريخ مصر القديم والحديث ، وانتخب من كل طور أبرز الاحداث التى شهدتها البلاد ، ان تكن خيرا ويمنا وعزا ، أو تكن شرا وبؤسا وتدهورا ، وعمد الى صوغ ذلك فى قصيد ملحمى بديع ، وانطلق يشيد فيه بكل ما يحدث عن مجد مصر ، لا سيما فى عهد الفراعنة ، ويباهى بما نجم عن ذلك العهد من المعالم والمنشآت الحضارية ؛ وكذلك الشأن عندما وصل الى ذكر فتح الاسكندر « ذى اليد البيضاء » ، والى الفتح الاسلامى على يد عمرو بن العاص ، والى بطولات الايوبيين فى تصديهم للحروب الصليبية ، والى عهد محمد علي وأعماله العمرانية وعنايته العظيمة ببعث عهد جديد لمصر ٠٠٠

ويتخلل عصور العزة والمجد والحضارة المزدهرة المتألقة الانوار ، عصور مظلمة قاتمة توالت فيها النوائب على مصر ، فيتوجع لذلك الشاعر ، ويندد بالمعتدين ، ويظهرهم فى مظهر التوحش والقساوة الضارية ، مثلما يبدو ذلك عند ذكر زحف «الهيكسوس» وهم «شعوب الرعاة» الذين هجموا من آسيا على مصر فى أواخر الدولة الفرعونية الاولى ٠

« واذا مصر خير شاة لراعى السوء »

كما يظهر ذلك فى الحديث عن غزو « قمبيز المشؤوم » ملك الفرس ، سيما وأن هذه النكبة حلت بمصر بعد أن استعاد رمسيس الثانى وحدة وادى النيل

وجدد عزته ؛ وكذلك عند الحديث عن الاحتلال الروماني الذي ضيعت فيه « أنثى »(6) مملكة البطالسة ؛ وعند ذكر غزو الصليبيين ، وتعسف المماليك، وحملة نابوليون بونابرت ...

وفي كل ذلك فان شوقي لا يهمل التأكيد على أن مصر قد وجدت كلما ابتلاها الدهر وداهمتها محنة ، جموعا من بين أبنائها الابطال يقومون في وجه الغزاة المعتدين ، ولا يتوانون عن التضحية بالنفس في سبيل نصرة مصر ، واسترجاع مجدها والحفاظ على عزتها ، وكرامتها ومكانتها بين الامم ، وان في ذلك لنداء واضحا يوجهه الشاعر للشباب المصري وان كان غير مباشر ، ليتدارك الامر حيث ان مصر كانت حديثة العهد بالاحتلال البريطاني .

وقد تخير الشاعر للقصيدة كلها أسلوبا ملحميا تبرز خصائصه في الوزن والايقاع ، واختيار الالفاظ الفخمة ، والتصوير الواسع ، والمقابلات القوية ، وفي تشخيص الجماد وتوظيف القوى الطبيعية ، وفي تدخل الالهة في سير الاحداث وتأثير الرعاية السماوية ، فجاءت القصيدة على نحو يندر الوقوف على مثله في الشعر الملحمي الذي عرفه الادب العربي .

***

الا أن الجدير بالملاحظة هو أن الشاعر راح يتغنى في أكثر هذه القصيدة الطويلة بتاريخ مصر القديم وكبار أحداثه الماضية البعيدة ، ولم يتعرض للاحداث القريبة منه في الزمن الا في أربعين بيتا ، بحيث أنه أقدم على العصور القديمة بدون أية حيطة ولا تحفظ ، فأطلق لعبقريته الشعرية ما شاء لها أن تجول فيه من المعاني ، بينما تراه لا يشير الى الاحتلال البريطاني في عهد الخديوي توفيق الا بأبيات قليلة في آخر القصيدة .

والواقع أن شوقي لم يهب بلاده قلمه بصورة مطلقة بداية من سنة رجوعه من فرنسا كما يقول ؛ نعم قد أشاد الشاعر بذكر محمد علي الكبير وباعماله الجليلة ، وسعيه لبناء أنظمة دولة عصرية ، وأشاد كذلك بفتوحاته في الشرق الاوسط مثل قوله :

---

(6) هي كليوباطرة ملكة مصر آنذاك .

علم أنت فى المشارق مفرد لك فى العالمين ذكر مخلد
جبذا دولة وملك كبير أنت بانى ركنيهما يا محمد

كما أشاد بذكر اسماعيل ، ومنجزاته العمرانية كتنظيم الجيش ، وبناء المساجد ، وحفر قناة السويس ، وانشاء البريد وتجهيزاته ، وتنظيم دواليب الادارة فى الاقاليم وغير ذلك ؛ ولكن الشاعر اذ يسجل ما فيه فخر لمصر ، كان فى الواقع يمدح الاسرة المالكة ويخدمها ، ويمجدها فى غير تحفظ ، وخير دليل على ذلك هو أن الخديوى اسماعيل كان المسؤول الاول على انتصاب الحماية البريطانية فى مصر بسبب تبذيره لاموال الدولة ، وسوء تصرفه فيها، واسرافه فى اللجوء الى القروض الاجنبية ، وبيعه لاسهم الدولة المصرية فى شركة القناة الى بريطانيا ، واذا بالشاعر لا يشير الى كل ذلك الا بصفة مبهمة محتشمة فى بيت واحد :

ولو أنا صنا وصنت لعشنا الدهر فى العز والسيادة رغدا

وهكذا يمكن أن نقول ان الشعر المتعلق بالاحداث القريبة من شوقى والمعاصرة له كان له وجهان :

ــ ذلك الوجه الذى يمجد العصور الذهبية من تاريخ مصر ، فيفاخر بأعمال محمد علي واسماعيل ، ويضرب من ذلك الامثال للشباب المصرى .

ــ ووجه ثان يتبين منه أن الشاعر لم يرد أن يغضب به لا الامير القائم ولا الدولة الحامية المحتلة لبلاده ، حتى أنه لم يلتفت الى الحركة الوطنية الشعبية الواسعة التى كانت قائمة فى مصر من أواخر القرن التاسع عشر الى مطلع القرن العشرين بزعامة مصطفى كامل ؛ والامثلة التى تدل على تحفظ الشاعر وحذره ، وحرصه على الا يغضب السلطة القائمة ، كثيرة ونذكر منها :

• أن شوقى أقدم سنة 1902 على نظم قصيدة فى مدح ملك بريطانيا « ايدوارد » السابع بمناسبة تتويجه ، ولهج بخصال البريطانيين ومناقبهم ، بينما كان « اللورد كرومر » المندوب البريطانى فى مصر معروفا ببطشه وطغيانه .

• ثم ان محمد عبده توفى سنة 1905 ، وكان على ما عرف بـه من زعـامة الحركة الفكرية الاصـلاحية التى انتشـرت فى مصـر وفى العـالم العـربى والاسلامى ، ولم يرثه شوقى الا بثلاثة أبيات يغلب عليها التكلف والابتذال .

• ومن ذلك أيضا أن حادثة نشبت بين أهـل قـرية دنشـواى وبعض الضباط الانقليزيين ، فمات من بينهم ضابط واحد ، وكان رد فعل « اللورد كرومر » أن شدد القمع والتعسف على أهل تلك القرية ، بما فى ذلك التعذيب والاحكام بالسجن والشنق ؛ وضجت مصر بذلك ، وانتشـرت أخبـار هذه الحوادث على الصحف العالمية ، ولكن شـوقى لم يقـل فى ذلـك الا قصيـدة « ذكرى دنشواى » نظمها سنة 1907 ، بعد مرور عام على أحداث القمع ؛ وهى قصيدة قصيرة يتوجع فيها الشاعر على الاموات ويتأسى بحال الناس وليس فيها من اشارة الى طغيان الاستعمار البريطانى الا فى هذا البيت :

« نيرون » (7) لو ادركت عهد « كرومر »

لـعـرفـت كيـف تنظم الأحـكــام

• وغادر اللورد « كرومر » منصبه فى مصر بقرار من الحكومة البريطانية سنة 1907 ، ولا يجد شـوقى ما يقول عنه سوى مثل هذا البيت فى قصيدة عنوانها « وداع كرومر » :

يـا مالكـا رق الرقاب بباسـه هلا اتخذت الى القلوب سبيـلا

• وأخيرا فان عباس حلمى عمد فى سياسته الخـارجية الى التقـرب من الدولة العثمانية سنـة 1914 ، وهى سنـة نشوب الحـرب العالميـة الأولى ، وكانت الدولة العثمانية حليفة المانيا ، فقررت بريطانيا عزل عبـاس حلمـى وتعويضه بالسلطان حسين كامل . وهذا مـوقف شـوقى من مثـل هـذه الاحـداث :

الملـك فيكـم آل اسمـاعيـلا لا زال بيتكـم يظـل النيـلا
يا اهل مصر كلوا الامور لربكم فالله خيـر مـوئـلا ووكيـلا
جـرت الامور مع القضاء لغاية وأقرهـا من يملـك التحويـلا

(7) هو « نيـرون » (Néron) الامبراطـور الرومـانى المشهور بطغيـانه وقسـاوته.

والحاصل مما تقدم أن شـوقى فى هذه الفترة الثانية من حياته قد حاول أن يكون « الصدى الرنان » لعصره ، وأن يكون المنار الذى « يهـدي النـاس سبيلهم» ، ولكن ذلك لم يكن منه الا فى حدود ما يرضى سيده الخديوى ولا يغضب الدولة الحامية ؛ وبالرغم من هذه الحيطة وهذه التقية فان البريطانيين لم ينسوا له قصيدة « وداع كرومر » التى شبهه فيها « بنيرون » الامبراطور الرومانى السفاح ، والتى يزدرى فيها بسياسة « كرومر » :

قالوا جلبت لنا الرفاهة والغنى   جحدوا الاله وصنعـه والنيـلا
وحياة مصر على زمـان محمـد   ونهوضها من عهـد اسماعيـلا
هل من نداك على المدارس أنها   تذر العلـوم وتاخـذ الفتبـولا

فحكموا عليه بالنفى فغادر مصر واستقر فى اسبانيا ، وسيكون لهذه المحنة أثر قوي فى نفس الشاعر وفى نتاجه .

***

قضى أحمد شوقى ما يقرب من خمس سنوات بالمنفى ، وقل انتاجه فى تلك المدة ، ولم يكن شأنه شأن « هوقو » الذى رفع راية الحرية من منفاه وتمادى على التنديد بنظام الامبراطور الفرنسى نابليون الثالث ؛ بل سكت شـوقى عن سيطرة الاستعمار البريطانى على بلاده ، وعما كان الشعب المصرى يعانيه من جراء ذلك ؛ وليس الا أنا نذكر له قصيدتين يعبر فيهما عن حبـه لوطنه وحنينه اليه .

فالاولى يعارض فيها نونية ابن زيدون ويقول عن مصر انها :

أرض الأبوة والميلاد ، طيبهـا   مر الصبا فى ذيول من تصابينا

ويعارض فى الثانية سينية البحتري :

وسلا مصر هل سلا القلب عنها   أو آسى جرحها الزمان المؤسى
وطنى لو شغلت بالخلـد عنـه   نازعتنى اليه فى الخلـد نفسى

ثم رجع الشاعر الى وطنه سنة 1920 ، واذا به يعلن أن حبه لبلاده أصبح راسخا فى نفسه رسوخ العقيدة الدينية ، ويعود الى التغنى بأحداث تاريخها القديم والحديث .

فأما الاحداث القديمة فان شوقي لم يكد يزيد شيئا على ما أورده من المعاني وعدده من المفاخر والمناقب في قصيدة « كبار الحوادث بوادي النيل » وراح يضرب الامثال للشباب يدعوه بها الى تجديد عزة وطنه وحضارته التليدة ، ومما يقول عن الفراعنة :

فكانوا الشهب حين الارض ليل وحين الناس جد مضللينا
مشت بمنارهم في الارض روما ومن أنوارهم قبست أثينا

الى أن يقول :

شباب قنع لا خير فيهم وبورك في الشباب الطامحينا

وأما الاحداث المعاصرة للشاعر ، فانه ينبغي قبل التعرض لما قاله فيها أن نشير الى أمرين :

الاول : هو أن شوقي ابتعد عن قصر الامير من يوم رجوعه من المنفى ، وانقطع للشعر والادب ، ذلك أنه تأثر تأثرا عميقا بالاحتفال العظيم الذى أقيم له عند وصوله الى مصر راجعا من المنفى ؛ فأحس في عمق نفسه بأن الرسالة التى هو مسؤول عنها ، انما هو مدين بها للوطن وللشعب لا للامير .

والثاني : هو أن المدة التى فيما بين 1920 وبين 1932 تاريخ وفاة الشاعر ، كانت زاخرة بالاحداث السياسية ؛ والبارز منها هو ثورة سعد زغلول على الاستعمار البريطاني ، وعلى سلطة الملك فؤاد الذى لم يكن قابلا للنظام النيابي ؛ فكان الشعب المصرى في وضع تمرد وثورة ؛ ودخل سعد زغلول في مفاوضات بوصفه زعيما لحزب الوفد ، مع بريطانيا ، ثم حكم عليه بالنفى ، ورجع بعد ذلك من منفاه منتصرا وكسب الانتخابات سنة 1923 ، وتواصل الصراع بين حزب الوفد والشعب المصرى وبين سلط الحماية البريطانية حتى الى ما بعد وفاة الشاعر .

وفي هذه الفترة من حياته يمكن أن نوافق شوقي على قوله :

« **إنه وهب بلاده قلمه** » اذ أنه لم يكد ينظم قصيدة ليس فيها ذكر قصير أو طويل للاحداث التى كانت تعيشها بلاده .

ولم يشأ الشاعر أن ينضم الى صفوف حزب معين فيكون من دعاته وأنصاره ، بل اختار أن تكون صلاته وثيقة بجميع الاحزاب والنزعات ، ودأب

يدعو مواطنيه الى الاتحاد والوئام والتضامن وتكاتف الجهود فى سبيل نصرة البلاد والنهوض بها .

ومثال ذلك ان الحكومة البريطانية عرضت على حزب الوفد وعلى سعد زغلول مشروعا اصلاحيا عرف «بمشروع هلنر» وكان ذلك سنة 1920 . وقوبل هذا العرض بالرفض لانه لا يمنح مصر الا استقلالا ذاتيا مقيدا بشروط ؛ ويبدو أن شوقى مال فى أول الامر تجاه قبول المشروع كخطوة أولى :

ما بال قومى اختلفوا بينهم في مدحة المشروع أو ثلبه

من يخلع النير يعش برهة في أثر النير وفى ندبه

ثم يتدارك الموقف سنة 1922 ، بعد أن عرضت بريطانيا مشروعا ثانيا ينقح السابق ، فيضم الشاعر صوته الى صوت الجماهير وصوت الاحزاب ويصف الهيمنة البريطانية بأن :

« ... **قيودها قد صرن من ذهب وكن حديدا** »

والى جانب ذلك ، فان الشاعر استمر على نظم القصائد فى الاعياد الوطنية ، والمناسبات السياسية والاجتماعية والثقافية ، وفى رثاء الزعماء ، أمثال مصطفى كامل زعيم الحزب الوطنى الذى نال حقه فى هذه المرة ، والزعيم سعد زغلول زعيم حزب الوفد ، ولم يزل ينطق ويتغنى بما يشغل الجماهير ويتجاوب مع طموحات الشعب المصرى وآماله ، ويواكب نضاله وكفاحه ، فكان بذلك حقيقة يؤدى رسالته فى الشعر ، ويشكر الله على ما خصه به من الموهبة فيها حتى أنه لما أقيم له حفل التكريم بلقب أمير الشعراء سنة 1927 ، فان سعد زغلول هو الذى أشرف بنفسه على ذلك الحفل ، وفى ذلك ما فيه من رمز للاكرام والتقدير ، وما أبعد أحمد شوقى فى هذا المقام عن ذلك الرجل الذى كان يعتز ويفتخر بمنزلته فى قصر الامير ، يتكسب بالمدح ويعيش فى ظل سيده ؛ ويستلم أذياله » .

عبد العزيز بن حسن

بعض المصادر والمراجع

المصادر : ـ تاريخ حياة أحمد شوقى ، كما تحدث عنها الشاعر فى مقدمة الطبعة الاولى لديوانه سنة : 1898 .

ـ الديوان : الشوقيات ـ الطبعة الثانية بتقديم محمد حسن هيكل ـ 4 أجزاء ـ القاهرة 1951 .

المراجع : • في التاريخ القديم :

ـ تاريخ الشرق (Histoire d'Orient) Par LEON Homo Paris 1945

ـ تاريخ الحضارة المصرية Histoire de la Civilisation Egyptienne par Gustave Jéquier - Paris 1930 -

• وفي التاريخ الحديث :

ـ تاريخ الشعوب والدول الاسلامية لكارل بروكلمان ـ 5 أجزاء ـ بيروت ـ 1943 .

دراسات عن ديوان أحمد شوقي :

ـ طه حسين : « حافظ وشوقي » ـ القاهرة 1933 .
ـ عمر فروخ : « كلمة في أحمد شوقي » ـ بيروت 1950 .
ـ شوقي ضيف : « شوقي شاعر العصر الحديث » ـ القاهرة 1953 .

ـ نازك سابايارد : « أحمد شوقي لحن المجتمع والوطن » ـ بيروت 1968 .

ـ مجلة الهلال : عدد خاص بالذكرى المئوية لولادة شوقي ـ القاهرة ـ نوفمبر 1968 .

مراجع عامة : Maurice Le vaillant : (L'oeuvre de Victor Hugo) - Paris 1932

تحيا الحاء .. تحيا الباء .. (*)

شعر : الصادق شرف
(أبو وجدان)

دخلت «الأخلاء» سنتها الثامنة رافعة الى صديقها البشير بن سلامة بيد الاصرار على الاستمرار الواعد باقة حب نبيل .. وحزمة ضوء جميل .

تَنْتَابُنِي ريحُ الهوَى .. أَرْتَابُ ... والرَّيْبُ عِنْدَ العَاشِقِين صَوَاب
ريحٌ رُخَاءٌ إذْ تَمُرّ بِــوَجْدِنَا ... تَرْتَجّ حِينَ مرورهَا الأعصابُ
يَنْتَابُنِي شوقُ الهوى ، غيرُ النفو ... س الحَيّة الأشْوَاقُ لاَ تَنْتَابُ
رَهَجا يشبّ العشقُ في قلبي .. وهل ... غيرُ القلوبِ العاشقات شَبَابُ ؟
يا خيمةَ الوَجد .. الجبالُ تَوَتَّرَتْ ... منّي .. وهلْ تَتَوَتّرُ الأخْشَاب؟
ولقد عَشِقْتُكِ والغصونُ رقيقةٌ ... فإذَا التَّصلُّبُ في الهَوَى جَذّابْ
ولقد لقيتُ بك الرجوعَ مُعَبَّدا ... ولقد لبستُكِ والهُروبُ خـرابُ
ولقد أضعتُكِ والغيومُ تَقَشَّعَت ... ولقدْ وجدتُكِ والسماءُ ضَبَابُ ..
ولقد رجعت إليك فَجْرَ تَمَزّقِي ... فتقاربتْ مَا بَيْنَنَا الأحـزَاب
ولقد سمعتُك والصدى مُتَقَطّعٌ ، ... وطَرَشْتُ عَنْكِ وفي لَهَاكِ عِتاب
لا تعتبِي فحدبتُ نَبْعَكِ طافحٌ ... بالحزن .. تَطْفَحُ بالندى الأعشابُ
وَيجفّ ينبوعُ الندى ، أنّى الشّعا ... عُ على الندى مِنْ نَبْعِه يَنْسَابُ

(*) « تحيا الحاء .. تحيا الباء .. » هذا عنوان مجموعة شعرية جديدة للشاعر تصدر قريبا جدا عن مؤسسة « الأخلاء » .

أَحْتَار بَيْنَ المَنْبَعَيْن، فَمَنْبَع : عينَان تَهْمِي مِنْهُمَا الأَسْرَاب
والمنبعُ الثاني : ضياءٌ خَالِصٌ ، واخترتُه . والإختيَار عَــذَابُ
اختارُ مِنْ نَبْع الضياء مَرَاشِفِي وشفاهُ غيري للسَّرابِ شَــرَابُ
لا بالعيُون أرى السرابَ .. وإِنَّمَا بعضُ الشفاه تَلُوحُ وهي سَرَابُ
وأنا بِعَيْنَيَّ الشرابُ رشفتــــه نُورا .. أما تَتَرَشَّفُ الأَهْدَابُ ؟
لاَ تُفْلِتُ العينان أكوابَ الهوى ، ولكم من الشفتين حيناً تفلت الأكوابُ !
أنا اذ سألتُك يا عشيقة : « هل أحب سواك ؟» من شَفَتَيك نَطَّ جَوَابُ :
-«انت الذى أَحْبَبْتَ وردًا رائعًا والورد مثلُكَ عِنْدَهُ أَحْبَابُ ..
أحْبِبْ كَمَا تَبْغِي الورود فإنَّها شرفاتُنا إذ تُغْلَقُ الأَبْوَابُ !
الوردُ يفتحُنَا على رَحب المَدَى تمتدّ منا في الرّحاب رقابُ »

* * *

ما في الرّحاب وجدتُ شبرًا شاغرًا الا وأشرقَ فيه منا شمعةٌ .. وكِتَاب
نحنُ الأخلاّءُ الشُّمُوعُ، لغيرنَا مِنَّا يَذُوبُ الجسْمُ .. وَالأَثْوَاب
والبعضُ منَّا لو يُضيءُ لنَفْسِه هلْ يَحْجُبُ الضوءَ الشديد نقابُ؟
وتُعانِقُ الضوْءَ البشيرَ عُيُونُنَا كم بالعيُون تعانَقَ الأحبابُ . !

الصـادق شـرف

الأدب الشعبي والمجتمع التونسي

بقلم : د. عبد الرحمان أيوب

حول كتاب : « على هامش السيرة الهلالية » لمحمد المرزوقي :

يكاد المرء يعتقد ــ وهو يطلع على مؤلفات المغفور له محمد المــرزوقي ــ أنه قد خصص حياته كاملة لجمع نصــوص روايــات السيــرة الهــلالية بالبــلاد التونسية ، وان الدراسات التي كتبها حول بعض مظاهر التراث الشعبي المادي وغير المادي انما جاءت عرضا كحيثيات ساقتها ميادين البحث لـه لاستجــلاء خفايا مصطلح أو ظاهرة ساقها الراوي الشعبي « الهلالي » في معرض روايته .

ويكاد يذهب الظن بالمرء المهتم بمؤلفات محمد المرزوقي الى أنه قد نشر كل ما حصل عليه من روايات هلالية ودراسات خصص بها هذه السيرة الشعبية العربية . ولكن الواقع يبدو عكس ذلك . فقد نشر المرزوقي كل ما درسه من مظاهر التراث الشعبي ووافته المنية قبل أن يقبل على نشر ما جمعــه في كتاب من مقالات ونصوص حول السيرة الهلالية .

ولقد تكرم ابن المغفور له السيد رياض المرزوقي ووضع بين أيدينــا هذا الكتاب حتى نستفيد منه ونفيــد عنه قبــل أن يحظى بالنشــر ويصبــح في متنــاول الجميــع .

« على هامش السيرة الهلالية » :

يقول المرحوم محمد المرزوقي حول هذا الكتاب قبيــل وفاته بمــدة : (ان هذا الكتاب) « فصول كتبتها في أوقات مختلفة أثناء سنة كاملة كــان أوحاها إلي الملتقى الذي انعقد بالمركز الدولي للحمامات أواخر جوان 1980 وكنت أنوي الاقتصار على نشرها في المجلات وصدر بعضها فعلا في « الحياة الثقافيــة » . ولكن عندما تجمع لي رصيد منها فكرت في نشرها مستقلة في كتاب خــاص

مضيفا اليها نصوصا من روايات تونسية مختلفة لسيرة بني هلال زاعما ان في نشرها فائدة للقراء والباحثين حول السيرة الهلالية ، أو الاسطورة الطبيعية عامة أو الادب الشعبي بصورة أعم ، ولعلي أكون موفقا في ذلك » انتهى .

كان تحرير هذا التقديم يوم غرة جوان سنة 1981 . أي بعد سنة من ندوة الحمامات الاولى حول سيرة بني هلال . وبعد التحري بدا أن محمد المرزوقي لم يودع هذا الكتيب لدى أي ناشر تونسي رغم عزمه على ذلك .

وقبل وصف هذا الكتاب الذي يقع في 87 صفحة مرقونة ــ تحسن الاشارة الى حالتين عبر عنهما المرزوقي في هذا « التقديم » أما الاولى فتتمثل في أن المرزوقي شاء بهذه المقالات ــ التي هي من وحي من دراسات قدمها باحثون مختصون في ندوة الحمامات ــ خواطر ــ وكأنها سريعة ومباشرة ــ حول تلك الدراسات ليناقش فيها بعض الجوانب التي تتفق وآراءه أو تخالفها . غير أن الباحث في هذا الكتاب لن يعثر سوى على اشارتين اثنتين لباحثين شاركا في الندوة المذكورة وهما هانري نورس وانيتا بيكر ؛ بينما شارك في الندوة عشرون باحثا من أقطار عربية وغير عربية . وجاءت المقالات الاربع الاولى من كتيب المغفور له محمد المرزوقي حافلة بالمعطيات المقدمة في دراسة هؤلاء الباحثين ولكنه لم يشر اليها في مواقعها كما لم يشر الى اصحابها . ولعل المغفور له لم يزعم مناقشة تلك البحوث مناقشة علمية بقدر ما شاء أن يطرح آراء حول القضايا المطروحة فيها . ولو سلك المرزوقي غير المسالك الاخير لكانت مقالاته الواردة في هذا الكتيب والتي نشرت منها اثنتان في مجلة « الحياة الثقافية » « أكثر دقة وعلمية ، لكنها أتت بمثابة الملاحظات العابرة التي تفيد في ايقاظ حس القارىء بما في السيرة الهلالية من جوانب فنية ومعرفية من جهة وابداعية « شعبية » من جهة أخرى ، وتتركه رغم ذلك متعطشا الى معرفة المواضيع التي تعرض لها الباحثون المشاركون في ندوة الحمامات والى المناهج التي اعتمدوها في دراسة الجوانب المذكورة في سيرة بني هلال .

وتؤدي بنا هذه الملاحظة الى الاشارة الى أن منهج المرحوم محمد المرزوقي في هذا الكتاب لم يتجاوز الوصف الشامل والفوقي ــ ان صح التعبير ــ لنصوص السيرة الهلالية ، اذ يبدو انه لم يكن يسعى الى استقراء نصوص السيرة الهلالية بقدر ما كان يرغب في الالمام بها جملة والتعريف بها كجزء هام من التراث الشعبي التونسي .

وأما الحالة الثانية والتى تنبنى الى حد ما على الملاحظة السابقة فتتمثل فى تردد محمد المرزوقى فى تصنيف هذه السيرة الشعبية . فهل هى « سيرة شعبية » بمعنى « الملحمة » أم هى أسطورة طبيعية ؟ وهذا التردد بين الاصطلاحين والذى يتجلى أكثر فأكثر فى المقالين الاوليين من الكتاب كان له الاثر البالغ فى منحى دراسات محمد المرزوقى للسيرة الهلالية : فان كانت السيرة فى حسب التعريف المعترف به فى أوساط الاختصاص « المتن (Corpus) » الذى تؤرخ فيه الشعوب حياتها وتصوراتها بينما « الاسطورة الطبيعية » هى النص الذى يتجلى فيه تعامل الشعوب مع الظواهر الخارقة فان دراسة السيرة الهلالية لا يمكنها ان توضع فى محور البحث عما هو « حقيقى » وما هو « غير حقيقى » (أى غير مقبول) بل يلزم أن توضع فى محور البحث عما يرغب الناقل لها التعبير عنه حول ماضيه وحاضره بمثابتهما « واقعا » ومنه يبتعد اعتبار « المتن » فى حالاتها الموثقة فى الزمن أو حالاته المتطورة والمتغيرة (فى الزمان والمكان) ضربا من « الخيال المبتذل » ليصبح حالة تعبيرية عن ذهنية شعبية ينبغى استجلاؤها لادراك مكوناتها . ولذا لا يستغرب ـ وقد ذهب المرزوقى الى اعتبار سيرة بنى هلال « أسطورة طبيعية » أن يعمد فى بحوثه الى تحديد ما هو « حقيقى » بمعنى « مثبت تاريخيا » وما هو « الخيال » بمعنى « باطل تاريخيا » وينتج عنه أن تصبح دراسة السيرة الشعبية ـ وهو منهج اعتمد فى بدايات دراسة الادب الشعبى عامة ـ دراسة تقييمية لمعطيات لها علاقة بالتاريخ الرسمى (ومعطيات تخرج عن التحديد التاريخى) بهدف اثبات ظاهرة خارجة عن النص . ومنه تصبح الجوانب الفنية والابداعية حيثيات مهمشة لا تقصد ـ على المستوى التعبيرى ـ لذاتها .

والتذبذب فى الاصطلاح الوارد أعلاه حدد وجهة نظر المغفور له محمد المرزوقى فى تناول الادب الشعبى بصفة عامة ونصوص السيرة الهلالية على وجه الخصوص . ويلاحظ أن المرزوقى فى أكثر من موضع من هذا الكتيب لم يعمد تحديد اصطلاح لجأ الى استعماله ، والواقع أن المصطلحات الفنية السائرة فى دراسات الادب الشعبى كانت مقالات المرزوقى فى هذا الكتيب تخلو منها وعلى سبيل المثال : فانت لا تعثر قط على مصطلح « النقل » أو « التواتر » فى أى موضع تناول فيه المرزوقى « انتقال روايات السيرة الهلالية » فى الزمان والمكان . وقد نتساءل حول افتقار هذه المقالات الى الضبط الاصطلاحى ؟ ويبدو أن المرزوقى قد شاء التبسيط أكثر مما سعى الى التعمق فكاد كتيبه يخلو من أى مرجع مختص فى الدراسات الشعبية . واذا استثنينا اشاراته الى

كتابيه التوثيقيين : « الجازية الهلالية » و « البدو فى جلهم وترحالهم » فان قائمة مراجعه المثبتة فى الهوامش فحسب لا تعدو المراجع التاريخية القليلة هى :

ــ ١ ــ الجزء السادس من تاريخ ابن خلدون (ط . دار الكتاب اللبنانى سنة 1959) .

ــ 2 ــ معجم الانساب والاسرات الحاكمة فى التاريخ الاسلامى ــ لزمباور

ــ 3 ــ رحلة التجانى ــ ط . 2 .

أما الكتاب « على هامش السيرة الهلالية » الذى سنلخص أهم ما ورد فيه فيما يلى ونعلق فى عجالة على ما نرى وجوب التعليق عليه فيشتمل على قسمين :

١) قسم الدراسات ، 2) قسم النصوص .

وأما قسم الدراسات فيشتمل على ست مقالات وردت بعد البسملة والتقديم (ص. ١) حسب الترتيب التالى فى النص المرقون الذى بين أيدينا .

١ ــ « من وحى ملتقى الحمامات » . ص. 2 الى ص. 9 (وقد نشر بالحياة الثقافية عدد ١١/1980) .

2 ــ « اختلاف بين رواة السيرة » . ص. ١2 الى ص. ١5 (هكذا حسب الترقيم الاصلى للمؤلف) .

3 ــ « ظاهرة الغيبيات فى السيرة الهلالية » . ص. ١6 الى ص. 22 .

4 ــ « شخصيات السيرة » . ص. 23 الى ص. 38 .

5 ــ « أبو مخيبر » . ص. 39 الى ص. 44 .

6 ــ « منازل الهلاليين فى الشمال الافريقى » . ص. 45 الى ص. 53 (وقد نشر هذا المقال فى الحياة الثقافية عدد ١٥/1980 وقد تقدم به المرزوقى للمشاركة فى ندوة الحمامات المذكورة) .

وتبدو هذه المقالات الست رغم اختلاف مواضيعها المطروقة مشكلة لوحدة موضوعية نظرا لانها لا تخرج عن حدود التعامل مع بعض جوانب السيرة الهلالية دون غيرها من رصيد الادب الشعبى العربى .

واما قسم النصوص فيشتمل على النصوص التالية والتى نبوبها الى بابين .
باب النصوص المنقولة على لسان رواتها وباب النصوص التى صاغهـا احـد النظامين للشعر أو المرزوقى (كما فعل فى كتابه الجازية الهلالية انطلاقا من رواية شعبية واحدة أو عدة روايات للسيرة الهلالية ، ولقد قدم لها المرزوقى لتعليل وجودها ضمن هذا الكتيب كالآتى (ص. 53) :

« لكى يطلع القارىء على صدق ما ذكرناه سابقا من أن الاسطـورة الطبيعية تتطور وتختلف باختلاف المكان والزمان فهى تردد على ألسنة الرواة متأثرة بأمكنتهم وأزمنتهم ، أى أن الاسطورة تتأقلم بالمكان الذى تحل به وعلى لسان الراوى الذى يرويها مضيفا عليها من الخيال الذى يستوحيه من بيئتـه (و) لكى يطلع القارىء على مدى هذه الاختلافات فى الاحـداث وفى أمكنتهـا وفى أشخاصها وحتى فى لهجة الرواية اللغوية آثرت أن أضيف الى البحوث المتقدمة نصوصا من الروايات التونسية للسيرة لشعراء وقصاصين من القرنين الماضى والحالى . والله الموفق والمستعان » ويبدو المرزوقى من هذا التقـديم مواصـلا للرأى الذى أبديناه أعلاه من أن غرضه الاساسى هو ابراز الواقع من الخيال فى السيرة الشعبية أو « الاسطورة الطبيعية » على حد قوله . وأما النصوص المنقولة مباشرة فهى ضمن هذا الكتيب كالآتى :

1 ـ « معركة شوشة رادس » ص. 54 و 55 وهى مقطوعة فى 27 بيتـا من ملحمة بنى هلال (صفاقس) رواية أحمد ملاك وتروى مفادرة الزازية الشريف بن هاشم ولقاء هذا الاخير مع ذياب فى معركة شوشة رادس .

2 ـ « الحرب بين الهلالية وزناته » ص. 56 الى 59 وهو جـزء من روايـة سليمان بن عمار الشتوى (من المرازيق) يركز على مقتل أبناء الهـلالية من طرف العلام واندلاع الحرب بين بنى هلال والزناتة فى افريقيا وهـذا الجـزء عبارة عن تناوب بين الشعر والنثر كما هو فى أغلب روايات السيرة الهلالية .

3 ـ « رجوع ذياب من الابل » ص. 60 الى 62 وهو مقطوعة نثرية تتخللهـا 12 بيتا من الشعر من رواية صالح بن عمر المحفوظى (من القيروان) وتروى استغاثة الجازية بذياب الهلالى للاخذ بثأر عامر الخفاجى الذى قتلتـه زناتة . ويجعل الراوى أحداث هذه المقطوعة تدور بحاجب العيون قرب القيروان .

4 ـ « تداخل (هكذا) سعدى لفائدة بوزيد ورفاقه » ص. 63 الى 65 وهى مقطوعة تكاد تكون نثرية فى جلها من رواية عبد السلام المهذبى (من المزونة ، ولاية سيدى بوزيد) وتروى الحـوار الذى تم بين الجـازية وسعـدى حـول

« بوزيد » وأبناء شيخة ، ثم تدخل سعدى لدى أبيها الزناتي خليفة لتطلق سراح أبي زيد حتى يأتي بالفدية لتحرير مرعي ويحيى ويونس . والمقطوعة هذه من رواية طويلة نشرتها الباحثة أنيتا بيكر في أطروحتها حول روايات هلالية من الجنوب التونسي . نقلها المرزوقي عنها كما هي وأشار لذلك في الهامش .

5 ـ « بين الشريف والجازية » ص . 66 الى 69 وهي مقطوعة شعرية (61 بيتا) من رواية عثمان قريفة من دوز لخصها المرزوقي في صفحة تقديمية مؤكدا على أنه لم يتوصل الى معرفة الراوي الاصلي لهذه الملحمة الشعرية . وهي تشبه الى حد ما المقطوعة التي أوردها ابن خلدون في المقدمة حول المفارقة التي تقيمها الزازية بين الوسط البدوي والوسط الحضري ـ وهذه المقطوعة الشعرية تكاد تكون ـ كلمة كلمة ـ الرواية الشعرية التي جمعها بوريس وفريد غازي من منطقة المرازيق والتي أثبتها مع ترجمة فرنسية بالاشتراك مع ميشلين غالي في كتابنا « روايات تونسية لسيرة بني هلال » .

6 ـ « بين الهلاليين والعلام وخليفة الزناتي » ص. 70 الى 80 ويقول عنها محمد المرزوقي : « هذه قطعة من سيرة بني هلال نقلتها من نسخة المرحوم بوبكر بن عبد الرحمان الحمروني وبخطه . سلمها لي أخوه القاضي المرحوم عبد اللطيف الحمروني والقطعة تحكي وصول الهلاليين من الشرق واصطدامهم بالعلام وخليفة الزناتي (وهي بالتالي تكمل المقطوعة الرابعة المثبتة أعلاه بعنوان : تداخل سعدى لفائدة بوزيد ورفاقه) « ويواصل المرزوقي : « وأتكهن أن المرحوم بوبكر الحمروني نقلها عن المرحوم محمد التائب الذي كان من أكبر حفاظ السيرة الهلالية في الجنوب وهو من أبناء مارث (ولاية قابس). وسيرى القارىء أن الربط بين أجزاء السيرة المنظومة قدوقع بلغة عربية فصيحة ولا أشك أنها من تحرير المرحوم بوبكر بن عبد الرحمان » . وتضم المقطوعة ما يزيد عن 120 بيتا من الشعر أغلبها في شكل حوار بين ذياب وسعد البيت . وقد عمد فيها المرزوقي كما فعل مع بقية المقطوعات الاخرى الى تفسير بعض الكلمات التي رأى فائدة في تفسيرها .

النصوص المنظومة :

7 ـ « بوزيد ينجد الامير اليتيم » ص. 81 الى 84 وهي مقطوعة في 62 بيتا من نظم رواية محمد الحسيني وتقص عثور بوزيد أثناء الريادة على الامير اليتيم الذي اغتصب ملكه مماوك أبيه ويبدو من المقطوعة أن المملوك هو « سعد

الـوصيف » الذى يعرف بانه « خـادم » ذياب الهلالى وبالتالى يكون الاميـر اليتيم هو ابن ذياب بن غانم الهلالى . ولا نذكر بين الروايات الهلالية المعروفة ـ شرقا ومغربا ـ حادثة من هذا القبيل ولعلها رواية مختلفة لا عـلاقة لهـا بالسيرة الهلالية . ووضعها المرزوقى هنا لوجود اسمى أبى زيد الهلالى وسعد الوصيف والقارىء للمقطوعة يدرك أن ناظم المقطوعة محمد الحسينى قد انطلق من « وضع العبد الوصيف » كما فى سيرة بنى هلال للتعبير عن الصراع من أجل اغتصاب الملك وهى ظاهرة تناولتها سيرة بنى هلال فى أكثر من موضع ومن هذه الزاوية تبدو أهمية هذه المقطوعة فى نظرنا ، اذ أنها اعتمـدت نص السيرة الهلالية لمنطلق « ملهم » لكتابة ابداعية وينصب النص الاخير الذى وضعه المرزوقى تحت عنوان :

8 ـ « الطائر المقفص » ص. 85 و 86 وهو بمثابة موقف للمؤلف من الجازية (وهذا المقطع قد وقع نشره فى كتاب المرزوقى « الجازية الهلالية » من ص. 45 الى 48) وهو عبارة عن حوار كتبه المرزوقى نفسه على لسان الشريف بن هاشم والجازية الهلالية وهى كتابة ابداعية بلغة العامـة وهى بمثابة روايـة محمـد المرزوقى نفســه .

ومنه لا نرى مبررا لوضع النصين الاخيرين ضمن هذه النصوص التى أراد بها المرزوقى وثائق تؤيد ما ذهب اليه من أطروحات فى المقالات التى أخـذت نصف الكتيب وقد يكون من الافضل ـ فى صـورة نشـر هـذا الكتيـب ـ اخراجها منه .

ومهما كان الامر فمجموع النصوص المثبتة مفيد فى حد ذاته لانه يقوم مقام التوثيق لبعض أجزاء السيرة الهلالية التونسية فى عدة مواقـع من البـلاد التونسية ولو أن هذه المواقع جاءت أغلبهـا فى الجنـوب . وهى ـ مـا عـدا أالقيروان ـ صفاقس ـ قـابس ـ المزونـة ـ دوز ـ المرازيـق . والملاحـظ أن العناوين المذكورة لهذه المقطوعات المروية هى من وضع محمد المرزوقى وكانت الفائدة تعم لو سعى المؤلف الى مقارنة الروايات المثبتة بغيرها من الروايـات السائرة أو المنشورة مثل الروايات المنشورة فى الطبعات الشعبية أو الرواية التى نشرها المرحوم عبد الرحمان قيقة . غير أن توثيق هذه الروايات بقى منقوصا اذ لا يقدم المرزوقى الا النزر القليل حول رواتها والظروف التى حفت برواياتهـم .

الـدراســـات :

وكما أشرت اليه أعلاه فان المقالات التي يضمها هذا الكتاب تبدو وكأنها مشكلة لوحدة موضوعية وذلك بناء على انها تطرق بعض جوانب روايات السيرة الهلالية وفيما يلي تلخيص موجز وبعض التعليقات الموجزة عليها وذلك لفائدة قد يجدها الباحث والقارىء قبل أن يصبح الكتاب بين يديه :

أ ـ « من وحى ملتقى الحمامات » . ويتناول محمد المرزوقي في هذه المقالة المحاور التسعة التي دارت حولها « الندوة العالمية الاولى حول سيرة بنى هلال » (الحمامات 1980) وهذه المحاور هي :

1) مركز انطلاق السيرة الهلالية . 2) انتشارها . 3) لقاء بنى هلال بالتوارق . 4) ذياب والابل . 5) غيلان . 6) ماطوس . 7) الاسطورة والتاريخ . 8) مستقبل السيرة الهلالية . 9) لماذا نعتنى بالسيرة الهلالية ؟ .

1) ويرى المرزوقي أن الاصول الاولى للسيرة الهلالية قد بدأت بالظهور في أواخر القرن الخامس للهجرة ولا يقدم أى دليل على هذا الافتراض وشأنه في هذا كتحديد لمركز انطلاق السيرة على أنه صعيد مصر وليس المغرب العربي وبصفة خاصة افريقية (من القيروان الى فاس) بالرغم من أن أغلب المواقع المذكورة في « تغريبة بنى هلال » (وهي جزء من ثلاثة أجزاء السيرة الهلالية) والاحداث كذلك واقعة في بلاد المغرب العربي . ولم يشر المرزوقي في هذا الصدد الى أن المواقع والاحداث التي ترويها بقية أجزاء السيرة الهلالية (السيرة والريادة) تنسب أغلبها الى بلاد المشرق العربي من الجزيرة الى بلاد الشام الى مصر وبرقة وفي نفس الاتجاه يرفض المرزوقي الرأى القائل (دون اثبات لصاحب الرأى : « بأن الهلاليين هم الذين نشروا أخبار بطولاتهم (انظر الصفحة 2 من الكتيب) ولكن اخوانهم الذين استوطنوا صعيد مصر هم الذين حملوا هذه السيرة وتناقلوها وقد استغل الحكم الفاطمي في القاهرة لاشاعتها عن طريق القصاصين وذلك بهدف الانتقام من حكام افريقية للنيل من سمعتهم » . ويقول المرزوقي (ص. 2) : « واستخدام القصاصين في سياسة الدولة معروف لدى الفاطمين الذين كانوا لا يتورعون عن بث القصاصين في أسواق المدن والارياف يقصون على العامة الاساطير العجيبة تلهية لهم عن التفكير في شؤون الدولة والحكم وهي طريقة استخدمها قبلهم المروانيون من بنى أمية بتشجيعهم الشعراء على هجاء خصومهم وقبائلهم فشغلوا المجالس والنوادى العربية بهذه الثرهات (هكذا) » .

وللاسف لم يقدم المرزوقى أى اثبات على قوله هـذا خـاصة وأن ظـاهرة « استعمال الشعراء والقصاصين الشعبيين لاغراض الدعـاية السيـاسية » ظاهرة هامة وتناولها بالدراسة والتحليل يمكن من تسليط الاضواء على بعض النواحى من نصوص السير العربية والقصص الشعبى التى يبقى فهمها مغلقا . ولو حاول المرزوقى تفحص هذه الظاهرة بالعناية الكافية لكان اعتباره لجهل اهل المشرق بالمغرب ـ الذى يبدو فى الخلط المعاين فى الروايـات المشـرقية حول اسناد الوظائف السياسية لغير أصحابها والخلط فى المواقع والاحداث ـ قائما على حجة معقولة . اذ الدعاية السياسية لا تتطلب المعرفة الدقيقة بالاشياء بقدر ما تعمل على تشويه الحقائق والأمور الخاصة بالشخص أو النظام المقصود . ولو درس المرزوقى هذه الظاهرة لأتخذت بعض أجزاء نصوص السيرة الهلالية مستوى تعبيريا متميزا ومفيدا فى فهم مجرى التاريخ ، ولكن هذا يحتاج الى المزيد من الاثباتات والتمعن .

2) ثم ينتقل المرزوقى الى الحديث عن انتشار السيرة الهلالية مـن حيث بناء النص ومن حيث انتشارها فى الزمان والمكان . ويرى المرزوقى أن السيرة هى الملحمة الطبيعية (راجع أعلاه حول خلطه فى تحديد المصطلحات) لانها : « رواية حادث فى طفولة أمة أو شعب ثم تصبح هزجها » ، نظرا لان الملحمة تتوسـع كلما ازداد توسع الامة (الجماعة) المنتجة لها . وتعريف المرزوقى هذا يقوم ـ كما يبدو ـ على اعتبار أن السير تنشأ مع الشعوب فى بدء تكوينها وتتطور مع هذه الشعوب على مدار الزمن بالاضافات التى يدخلها ناقلـو السيـر من طفولتها الى نضجها . بيد أن المتعارف عليه هو أن السيرة أو الملاحم تمثل حالة تعبيرية للنضج الذى تتوصل اليه الشعوب ، فتكون بمثابة المـرآة العاكسـة للتصور الشعبى لماضيه وحاضره وهو تصور قائم على تعدد وجهات النظر عبر الزمان أى خلال عدة قرون ، ولعل توجه المرزوقى فى هذا الحكـم يقـوم على اعتقاده كعدد من الباحثين فى مجال التراث الشعبى بأن السيـرة هى « نص أوحـد » وجد فى فترة زمنية معينة وادخلت الرواة عليه اضافاتها على مدار الزمن . غير أن هذا الافتراض قد ابطلته النظريات الحديثة فى مجال دراسة الملاحم . لان النص الاوحد لا يعدو « الحالة الاستنتاجية فى البحـث » والواقع أن السيرة هى عدد غير محدد « الروايات المتفاوتـة يتفق بعضها مـع البعض ويختلف بعضها عن البعض حسب الرواة والزمان والمكان ولا يوجد بينها سوى قاسم مشترك يتمثل فى البناء التحتى الموضوعى للسيرة (راجع عبد الرحمان

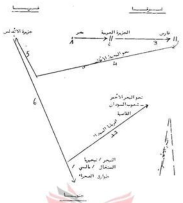
أيوب : سيرة بنى هلال مادتها ودور الذاكرة الشعبية فيها وكذلك كتاب باري لورد لورد The Singer of tales ويول زمبتور Poèsie Orale .

وانطلاقـا من تصوره بأن أصول السيرة الهلالية هى من الصعيد المصرى فان محمد المرزوقى يحدد مسار هذه السيرة حسب الاتجاهـات المثبتـة فى التخطيط المرسوم أدناه حيث تكون نقطة الانطلاق هى مصر ـ دون تحديد ـ (وهل مصر هى القاهرة أم صعيد مصر ؟) متجهة شرقا نحو الجزيرة العربية ففارس ثم غربا نحو المحيط الاطلسى فجزيرة الاندلس ثم جنوبا نحـو افريقيا السوداء ثم شرقا جنوبا نحو البحر الاحمر وشعوب السودان القاصية ويرى المرزوقى أن السيرة الهلالية قد ازدادت ثراء فى تنقلها وتطبعت بطابع البيئة الناقلة لها بل واحتضنت بعض الشعوب بعض أبطالها (مثل بوزيد الهلالى) على أنه وليدها (الروايات التشادية والنيجيرية مثلا) .

والغريب أن محمد المرزوقى قد ذهب ـ تحت تأثير القـراءة التـاريخية لأحداث سيرة بنى هلال وهى قراءة خلدونية عـلى أغلـب الظـن ـ الى هذا التخطيط فى « مسالك » الهلاليين فأسقط مسلكا هاما جدا وهـو المسلـك الشمالى . أى توجه الهلاليين من نجد الجزيرة العربية الى بلاد الشام كما يثبت ذلك الجزء الاول منها والذى يطلق عليه بالسيرة . ودون شك أن السبب فى ذلك يتمثل فى أن المرزوقى لم يكن يعتمد اعتمادا كاملا على القراءة النصيـة للروايات الهلاليـة بقدر ما كـان يلجأ الى اخضاعهـا للمعطـى التاريخى كمـا يستغرب لجوء محمد المرزوقى الى استعمال حرف التتالى . ثم « لتثبيـت المسار الهلالى مما يجعل القارىء يعتقد أن الرحلة الهلالية قد تمت حسب الترتيب المذكور والواقع أن النصوص الهلالية تقدم مسالك متشعبة ومتداخلة تحدث أحيانا فى الوقت نفسه كما تحدث أخرى على التوالى ، اذ الروايات كما قلنا وليدة بيئتها ، وتكون البيئة ـ بعد المنطلق الاول وهو نجـد وليس مصـر ـ المنطلق الاساسى نحو المواقع خارج الحدود .

وهذه السمة لا تختص بها الروايات الهلالية بل هى سمـة مشتـركة بين جميع السير العربية وغير العربية . ولذا غالبا ما يلجأ الباحثون للحديث عن « التصور الجغرافى لناقلى السير » وليس « للمسالك الواقعية فى السير » ، (انظر . عبد الرحمان أيوب . حول مخطوطات السيرة الهلالية ببرلين) .

تخطيط المرزوقي لمسالك بني هلال



3) وسعيا لتأكيد رأيه حول انتشار السيرة الهلالية فى افريقيا السوداء ساق محمد المرزوقى الرواية التى جمعها هانرى نورس حول «ذياب والغول». ومفادها الاحتكاك الذى وقع بين بنى هلال والطوارق أى البربر وذلك اثر قتل ذياب للغول الذى كان يأتى يوميا على فتاة طارقية. ومما لا شك فيه أن الطوارق هم من شعوب الصحراء، بل هم الشعوب الفاصلة والواصلة فى الوقت نفسه بين جزئى افريقيا اللذين تفصلهما بحار الصحارى من جهة وأن الطوارق هم من الشعوب البيض وليس السود كما ذهب المرزوقى الى ذلك من جهة أخرى. على أن الرواية التى نقلها نورس هامة فى حد ذاتها لانها تقدم المؤشر الرمزى حول «الدور الذى قام به انتشار الاسلام واللغة العربية فى المناطق الافريقية». اذ الغول هنا هو رمز «العدو» وما العدو الذى قضى عليه ذياب «رمز الاسلام والعربية هنا» سوى «الجهالة» و «الهمجية».

4) ودون ربط ينتقل المرزوقى للحديث حول تكليف ذياب برعاية الابل عوضا عن غيره من فرسان بنى هلال معللا ذلك باعتراف القبيلة له بمقدرته على التغلب على الأعداء فى حالة السطو أو الغارة وليس احتقارا لذياب. وكان لا بد أن يشير المرزوقى الى أن الجازية هى التى قررت أن يذهب ذياب الى غدامس ليرعى الابل حتى تمكن أبا زيد الهلالى من تنفيذ الخطة السياسية للدخول الى تونس والقائمة على «الحيلة» و «الهدنة»، ولكنها وبعد أن فشل

أبو زيد فى خطته استغاثت الجازية بل القبيلة الهلالية بذياب لتنفيذ أمر الحرب (راجع مقدمة الطاهر قيقة ـ لهلاليات) .

5) ثم ينتقل محمد المرزوقى للحديث عن شخصية اسطورية معروفة من الجنوب التونسى باسم غيلان . وهى شخصية عارفة بأمور الحيوانات والكواكب وبامكانها أن تتكهن بالغيبات ويسوق المرزوقى بعد ذلك رواية عشق « خضرة » لغيلان (وهو من الشخصيات التى اتخذها المسعدى فى رواية السد) . وقد التجأت خضرة الى صب الماء الساخن على شجرة اللوز حتى تعجل فى عودة معشوقها . وهذه الرواية معروفة فى الروايات الهلالية التونسية والجزائرية والليبية . غير أنها تضعها ، فى اطار الريادة بين الجازية وذياب . وأشار المرزوقى بالاعتماد على دراسة هنرى نورس الى أنها تعرف فى الجزائر والمصدر الصحيح هو الدراسة التى كتبها بالاشتراك مع ميشلين غالى كلود بروتو : (انظر Actes du 1er Congrès International A.I.D.M) .

6) ولاثبات دور الانتشار فى تطوير الرواية الشعبية وتغييرها يسوق محمد المرزوقى أسطورة ماطوس (Matius) وهو الاسم الذى تعرف به أيضا قرية تونسية تقع قرب رمادة والمتمثلة فى الحيلة التى اعتمدها ملك البلاد لبيع اراضيه بأثمان باهظة قبل وقوع سد مأرب (انظر . قصص العرب . ج 1/80 والادب الشعبى التونسى . ص : 27 و 28) وبهذا الصدد ينقل المرزوقى الرواية الهلالية على لسان محمد الحسينى حيث تم استغلال الاسطورة المذكورة مع تعويض شخوصها بشخوص هلالية مثل بوزيد الهلالى والعلام (ص. 6) .

7) ومواصلة لابراز تدخل العناصر الاسطورية فى الروايات الهلالية يخصص المرزوقى فقرة موجزة حول الاسطورة والتاريخ . حيث يركز على التداخل الذى يحصل حول ما يسميه بالملاحم الطبيعية التى تقوم على بعض الحقائق التاريخية وبعض الاساطير التى لها صلة بالتاريخ وذات المضمون الاجتماعى . ويرى المرزوقى ان هذا الامر لم يعد يحتاج الى مزيد من التحليل والتعليل نظرا لان اطروحة صالح بن حمادى حول الاساطير التونسية قد أفادت الافادة الكاملة . وانطلاقا من هذا الافتراض يذهب المرزوقى الى القول بان أغلب الاسماء الواردة فى السيرة الهلالية هى من بنات خيال الرواة الشعبيين وان الجذور التاريخية فيها قليلة وكان المرزوقى يسير بهذا نحو القول بان انتشار السيرة الهلالية فى الزمان والمكان يؤدى بها الى ان تصبح أسطورة بالمعنى الصحيح للكلمة . غير اننا نعلم ان الزمان والمكان من جهة وتطور المجتمعات من جهة أخرى يؤديان الى تخليص الاساطير من جانبها الخيالى

والابقاء فيها على ما هو مقبول عقليا ... والمرزوقي نفسه يدلي عكس اقتراحه الاول (ص. 8) حسب ما قالته انيتا بيكر في اطروحتها : بأن الاحداث الخيالية من الاساطير الملحمية يرمز أكثرها الى اشياء واقعية معينة .

8) اما عن مستقبل السيرة الهلالية فيرى المرزوقي (انطلاقا من الدراسة التي تقدمت بها في الندوة المذكورة والتي لم يشر اليها المرزوقي علنا) ان الظروف الموضوعية لم تعد متواجدة لتوسع السيرة الهلالية وانها ستتوقف عند وضعها المعروف اليوم . اما التجديد الذي قد يلحق بها فسيكون من باب الابداعات الفردية التي تتخذ السيرة الهلالية كمنطلق ملهم ومن باب الدراسات الحديثة التي ستتناولها .

9) ويختم المرزوقي مقالته الاولى بالتساؤل عن اعتناء الناس بالسيرة الهلالية ويجيب لانها سيرة شعبنا العربي على مر عدة قرون ولانها تتضمن معطيات مختلفة تخبر عن هذا الشعب . فاذا كان الامر كذلك : هل ستفقد الذاكرة الشعبية هذه السيرة التي تؤرخها ؟ ولم يجب المرزوقي مباشرة على هذا السؤال (وهو السؤال الذي طرحته ندوة الحمامات سنة 1980) . ولكن المقالة الثانية من الكتاب جاءت بمثابة الاجابة الاولية على هذا التساؤل :

2 ـ **اختلافات بين رواة السيرة** (ص. 12 ـ 15) :

حيث يركز على الاختلافات العديدة التي تميز بين روايات السيرة الهلالية من شمال تونس الى جنوبها ويعزو المرزوقي المفارقات بين الروايات الهلالية التونسية على الاقل الى سببين : 1) خيال الرواة نقلة الروايات ؟ 2) تطبع الرواية بطبيعة البيئة الناقلة لها وعقلية ناقليها . ويرى المرزوقي ان هذه المفارقات شاملة : فالرواية الهلالية تكون بدوية السمات في الاوساط البدوية وحضرية السمات في الاوساط الحضرية . غير ان جميع الروايات تبقى متحدة بين بعضها البعض حول المحور الاسلامي الذي يجمعها وهو حسب المرزوقي المحور الذي انطلقت منه الا وهو : « قصة شعب بدوي انطلق بايعاز من خلافة مصر الى الشمال الافريقي غازيا مخربا » : والحديث حول هذا المحور ـ وادنى ما يمكن ان يقال عنه ـ انه ناتج عن تسليط نظرة تاريخية « خارج النص » اذ يبدو أن جميع الروايات الهلالية المعروفة لدينا اليوم تتفق حول محور « تحتي » واحد ـ قد اسهبنا القول فيه في اكثر من موضع ـ ويتمثل في : صراع مجموعة بشرية ـ تتحد المجموعات الناقلة لسيرتها معها فيه ـ من اجل الحصول على القوت (راجع ايوب السيرة الهلالية : مادتها ودور الذاكرة الشعبية فيها) .

3 ـ ظاهرة الغيبيات من السيرة الهلالية (ص. 16 ـ 27) :

ويترك المرزوقى بعد المقالين السابقين الدراسات العامة للهلالية ليخص بالنظر بعض الجزئيات الواردة فى نصوصها مثل الغيبيات التى يعوز وجودها فيها لانتشار الجهل وبساطة العقول . ويتناول المرزوقى فى مقالته هذه ظاهرة « خط الرمل » أو « التاقزة » التى تناولها بالوصف فى كتابه « مع البدو فى حلهم وترحالهم » ويرى ان هذه الظاهرة ـ وهى ما زالت منتشرة فى الاوساط الشعبية ويتخذها بعض أصحاب الجاه من علية القوم عندنا لقراءة غيبهم ـ قد أخذت فى الزوال نظرا لاكتساح الثقافة الاوساط التى كانت فيها منتشرة مثل بوادى البلاد التونسية واريافها ويركز المرزوقى على ان النصوص الهلالية تعج بقصص خط الرمل الذى كان بنو هلال واعداؤهم يلجؤون اليه لاستقراء الغيب (أى المستقبل القريب) . وعادة ما يتم ذلك قبل سفر مزمع أو حلم رآه أحدهم رغم عدم تصديقهم فى واقع الامر لما يفيد به خط الرمل . ويقف المرزوقى عند حد الافادة بوجود هذه الظاهرة ولم يعمد الى تحليلها وخاصة فى ارتباطها بظاهر الحلم أو الرؤيا وذلك على مستوى المقابلة بين التصديق/وعدم التصديق . ولو فعل لأفاد حول دور « خط الرمل » فى تحديد مفهوم الصراع فى السيرة الشعبية الذى لا يقف عن حدود الصراع المادى بل يصل ـ على مستوى البناء التحتى للسير ـ الى الصراع الوجودى (انظر عبد الرحمان أيوب . ظاهرة الحلم فى السيرة الهلالية . مجلة ابلا) .

أ ـ شخصيات السيرة (ص. 23 ـ 38) :

وبعد تناوله لظاهرة خط الرمل يخلص المرزوقى الى دراسة بعض شخصيات السيرة الهلالية ويتناول منها من يعتبرها المرزوقى قد قامت بدور وظائقى فى فى السيرة الهلالية وعدد هذه الشخصيات اثنى عشرة 9 رجال و 3 نساء (وهو نصاب . الرجل حظ الانثيين !) وهى موزعة الى شخصيات واقعية بمعنى أنها اثبتت تاريخيا (أى فى تاريخ ابن خلدون دون غيره) وشخصيات غير واقعية .

أما الشخصيات الواقعية فهى : الحسن بن سرحان (شيخ قبيلة دريد . ابن خلدون ج. 6 . ص. 35/48/49) .

أبو زيد الهلالى (سلامة ابن رزق حسب ابن خلدون . م. س.) .

الشريف بن هاشم (تولى امارة مكة سنة 430 هـ. توفى 453 هـ.م.س/40) .

ذياب بن غانم (م. س. ص. 35/38/41) .

خليفة الزناتي (وهو فى الواقع أبو سعدى خليفة اليفرني . م. س. ص. 35/42) .

العلام (دون اثبات) .

الجازية (زوجة الشريف بن هاشم . م. س/36) .

سعدى (بنت الزناتي . دون اثبات) .

أما الشخصيات غير الواقعية فهى حسب المرزوقى :

- ابن الخفاجي عامر .

- مرعى ويحيى ويونس (ويظن المرزوقى أن هذه الأسماء هى توزيع لاسم موحد وهو : مؤنس بن يحيى) .

- أحمد الهلالي .

- الجارية مي .

ويبدو أن الهدف الذى شاء الوصول اليه من وصف هذه الشخصيات فى هذا المجال هو ابراز الشخصيات الهلالية (أو غيرها) فى السيرة التى كانت لها صلة بالتاريخ الرسمى (اعتمادا على ابن خلدون) فكان فى عمله خاضعا الى المفهوم التالى : « وأن كل ما هو غير مقبول منطقيا ليس من الواقع » .

- ابو مخيبر (ص. 39 الى 44) :

ومواصلة لدراسته شخصيات السيرة الهلالية يخصص المرزوقى مقالا حول « أبى مخيبر » ويرى أنه شخصية معروفة لدى أحفاد سليم وهلال من القبائل التونسية ويروى على لسانه كلام شعر وهو أقرب الى الاولياء الصالحين وليس ممن يصنف بين الاولياء الصالحين . وهو حسب ابن خلدون « زياد بن عامر رائد الهلاليين فى دخول افريقية » (ج. 6/36) وقول ابن خلدون يؤيد الروايات الشعبية التى تنقل على لسان أبى مخيبر والتى تثبت العديد من أسماء المواقع والمدن فى افريقية ولم يتمكن المرزوقى بالاعتماد على المصادر التاريخية (تاريخ ابن خلدون ورحلة التجانى) من تحديد موقع أبى مخيبر . أما الرواية الشعبية فتنسبه الى قرية بمعتمدية (دوز) وتقع على تخوم

الصحراء « نويل » غير ان المرزوقى يشك فى صحة الرواية المقولة على لسان أبى مخيبر حول « نويل » وأهلها ، ويذهب الظن به الى أن أبا مخيبر النويلى قد يكون فعلا من أهل المنطقة ومن المتأخرين زمنا وهو غير أبى مخيبر المثبت تاريخيا . كما يشك المرزوقى فى الكلام المسند الى أبى مخيبر وأغلبه هجاء لأهل القرى والمدن . ويرى أن هذا الهجاء هو فى الواقع من صنع الرواة أنفسهم . وبعد أن ساق المرزوقى أمثلة من هذا الهجاء يخلص الى الشك فى شخصية أبى مخيبر على أنها شخصية واقعية ومنه يشك فى صحة ما نسب اليه . وبدورنا نخلص الى التساؤل عن هذه الشخصية : ألم تكن من محض خيال العامة وبمثابة التعلة (Prétexte) تعتمد لسوق (على لسانها) ما ترغب العامة فى قوله عن الاخيرين من ذم وقذع . وهذه عادة منتشرة الى اليوم بين سكان مختلف المناطق . وكان الافضل أن تدرس هذه الشخصية من هذه الزاوية لتحديد رؤى المناطق حول بعضها البعض من خلال أقوالها عن بعضها البعض .

وتنتهى مجموعة المقالات بمقال شارك به المرزوقى فى ندوة الحمامات وتم نشره سنة 1980 بمجلة الحياة الثقافية وهو :

— منازل الهلاليين فى الشمال الافريقى (ص. 45 — 53) :

وهو ثبت بأسماء القبائل من هلال وسليم التى استوطنت شمال افريقيا ولأماكنها والمقال مفيد من حيث أنه يرشد عن هذه القبائل منذ أوائل العهود الاسلامية الى زمن حصرها على يد المرزوقى ونكتفى هنا بهذه الاشارة الى هذا المقال نظرا لانه قد نشر سابقا وسيصدر قريبا فى كتاب ندوة الحمامات .

الخلاصة : لا شك فى أن هذه الدراسات تلقى أضواء على بعض جوانب نصوص السيرة الهلالية ولا شك أيضا فى أن النصوص المدرجة فى هذا الكتيب تضيف وثائق مفيدة الى رصيد المكتبة الهلالية . الا أن تساؤلا يبقى يتكرر فى أذهاننا طيلة قراءة هذه الوثائق . هل الاعتماد على التاريخ الرسمى كفيل بابراز ثراء مادة نصوص الادب الشعبى العربى ؟ وهل ليس من المفيد أن ننظر لأدبنا الشعبى من داخل نصوصه بالدرجة الاولى ثم نستنجد بالنصوص الرسمية التاريخية وغيرها ان اضطرت الحاجة الى ذلك ؟.

د. عبد الرحمان ايوب

أحدب العريش

قصة : مصطفى المدايني

اسمحوا لي في البداية أن اعتذر لكم . هذه الكلمات والسطور جاءت رغما عني انني في الغالب لا أريد أن ابوح . ولعلي أصارحكم لاول مرة . انني سأكون أكثر وضوحا ، منذ مدة كان صديقي يدفعني إلى الكلام كان يود لو يأمرني ببثي لشجوني ، ويسعى لكي أحدثكم عن نفسي بكل حرية وطلاقة . ولكنني كنت دوما أركن إلى الصمت ، تاركا صديقي العزيز يتعذب من أجلي ، بل لعله لا يستطيع أن يصف لكم ما يعتريني بصدق ووفاء من أحاسيس ومشاعر متناقضة مختلفة . المهم أيها السادة اني قررت اليوم أن أسأل صديقي العزيز ان يصمت ولا يتفوه بكلمة ، بل اني — واستسمحكم العبارة — ألزمته الصمت ...

في البداية أقدم لكم نفسي . اني بكل تواضع أدعى : السيد : ق . ولدت بقرية : غ فيها نشأت وترعرعت . وفيها تمت معرفتي بصديقي العزيز .. فلازمته ولازمني .. واعلموا اني أقلقته المرار العديدة . فتجشم من أجلي التعب والسهر والأرق . تصوروا كنت آتيه وهو مستلق ينعم بالراحة ويسعى إلى الهدوء بعبارة أوضح عندما يكون مطمئنا .. وفجأة اندس في أحلامه يتخيلني بطلا من أبطال قصصه . كنت آتيه عنوة دون سابق اعلام . كنت آتيه وهو يفكر بمسائل حياتية متنوعة ، وكنت اجد لذة في تعكير صفوه وهو بصدد العمل وعند اجراء العديد من الامتحانات وما أكثرها بالنسبة له ...! تصوروا كان الصديق يبتسم في وجهي ويفتح لي قلبه ، ولا تتشنج أعصابه في أغلب الحالات ، لكنه من حين لآخر كان يأمرني بالبوح له بأسراري والا فانه لا يتورع عن طردي .. نعم لقد فعلها مرارا ...

ولذلك قررت أن أريحه الآن . مسكت القلم من يده وقلت له سأخط لهم (أقصد السادة القراء) قصتي بمدادي ، وسأترك صديقي العزيز جانبا ، أعلم انه سيتدخل من حين لآخر ، لكن تأكدوا انني هذه المرة سأملي عليه طريقتي في التعبير واوضح رؤاي .

نعم ، انني ادعى السيد ق ، ولدت في قرية غ ، وهي قرية تقع عند سفح جبل عال . انها جذوري الاصيلة ، بها نشأت . لم ادخل مدرسة . وما تعلمت شيئا يذكر . كذلك لم اعمل عملا قارا . الا من حين لآخر فانني أقوم ببعض الأعمال التي تدرّ علي ما يسد الرمق ...

ارجوكم لا تسألوني عن حياتي الأولى اقصد طفولتي . لم أر أمي . ولا عرفت أبي ... المهم تلك قضية لا أريد الخوض فيها رغم إلحاح صديقي العزيز ... ولأصارحكم انني أعمل كل الأعمال الممكنة كما انني كثيراً ما أطرد ... والغريب ان هذا الطرد يأتي في المواسم خاصة ، اقصد انني اعمل في بداية البذر مثلا اما عند الحصاد ... والجني فمن عادة أهل القرية الاستغناء عني ، عندئذ اتوجه إلى امي س التي تكن لي بعض الحب ، وقليلا من الحنان ...

نعم ، انني لا أستقر على حال . فكثيرا ما أطرد ، والسبب في ذلك على ما يبدو إلى ضرب من الانحناء الذي أحسست به ذات يوم قائل ... ثم رافقني الانحناء حتى اعتادني وبدأت اعتاده . خفت في البداية من مواجهة الأرض ، وصعوبة النظر إلى فوق ، لكنني تدريجيا وجدت فيه ضربا من التميز . فعندما أمر أمام المقهى يقول النادل : ها قد وصل الأحدب الصغير . وعندما أقف في مواجهة واجهات المغازات يقول المارة : الاحدب سيشتري لوازمه . ويصيح البائع من الداخل : تفضل ايها الاحدب .. افسحوا المجال للاحدب ...

صحيح اني اسرعت إلى الطبيب في بداية اصابتي بالانحناء لكنه أكد لي أن الامر في غاية البساطة ولا يعدو أن يكون مجرد ارهاق عابر . لقد طلب مني الركون الى الراحة وممارسة ألعاب رياضية متنوعة . كنت أعلم أن هذه النصائح ليست لأمثالي .. فانا أقوم مع الفجر أكدح صباح مساء حتى أحصل على قوتي اليومي . ومع ذلك اشتريت الدواء وقد كلفني غاليا ...

والى الآن انا اتناول بعض الأدوية ومع ذلك فان الانحناء مازال يلازمني ولم أعد في الحقيقة أهتم به أو أخشاه فكلنا – والحمد لله – منحنون بصفة او بأخرى .

عفوا ، ايها السادة ، ليس هذا هو المهم بالنسبة لكم ، انما هو اطار لا بد منه لأمدكم بتفاصيل ضافية ، قد تثير فيكم الشفقة والحنان .. وليس هذا ما ابغيه ، صدقوني ، اني كنت دوما اطلب من صديقي العزيز ان يمسك القلم ويخط لكم قصتي لكني في الأخير لا أودّ البوخ والتعري فكان يكتب كلاما يقول عنه البعض: إنه يمتاز بشاعرية مفرطة .. وينتقده البعض الآخر مؤكدا ان روايته : «الرحيل» جاءت باسلوب شفاف للغاية ، فاذا به يرمز دون ايضاح ، ويعبر دون ابلاغ واصدقكم القول : إنني أنا الذي جعلته يكتبها بتلك الطريقة ، تصوروا صديقي العزيز لا يجد ما يقول . وقد توارى بطله الخاص وراء الحجب : لقد فعلتها في العديد من المناسبات ، كنت أنكمش بعد تقديم بعض المعطيات الاولى فأراه وقد ألم به شوق عارم فيمسك القلم ويخط كلاما ليس هو المقصود بذاته ، فاذا بالعبارة ضبابية غريبة طريفة ... كنت أعلم انه يتألم اذ يكتب وكنت أجد لذة في عذابه أما الآن فلقد قررت أن أتكلم واوضح ما خفي .

نعم لقد اعتراني انحناء طفيف في البداية ، ثم احسست بورم في مستوى الظهر وبالضبط عند منتصف عمودي الفقري . هذه المرة لم أذهب الى الطبيب بل استشرت صديقي الذى قال لي مواسيا : لعلها حدبة من نوع جديد . ثم واصل معلقا : هي ، على كل حال في صالحك ...

نعم هذا ما قاله الصديق مصطفى المدايني وغادرني متوجها إلى العمل في الحقيقة كرهت صديقي عندئذ ومع مرور الأسابيع والاعوام لاحظت صحة كلمته . لقد بدأ الورم يكبر تدريجيا . لم أحس بأي ألم لكن ظهري اعتراه انحناء هام وتخيلت نفسي أسير في شوارع مزدحمة ، وفي منعطفات خالية وتصورت الأصدقاء والأطفال والساحات والقصور والاشجار الوارفة وهي تنظر إلي مستفهمة .

خمنت . لعل في الأمر مفاجأة ما . وعمني ذات ليلة مقمرة ارق كبير لم استطع النوم . كانت الساعة تشير الى الساعة الثانية بعد تصف

الليل ، وكان صديقي نائما وكنت مسهدا وقد جافاني الهدوء . اردت ازعاجه ، لكني احسست بتضخم الحدبة . نعم احسست اني أحمل جبال الاتعاب . قلت في داخلي : « لاركنن إلى الراحة ولينته عذاب الضمير » . وجدت عندئذ لذة في النوم على بطني ولأول مرة امتد على الارض يداى تداعبان التراب الأشهب ورجلاي تستريحان على اليباس . وساءلت نفسي : « هل هي الراحة ؟ أم هو الهجوع الحقيقي .. ؟ »

نعم، هل نمتم على بطونكم ذات يوم وقد تملككم وجع ما في الظهرانها طريقة مناسبة ، مريحة ، مريحة المهم اني استرحت ، استرحت حد الطمأنينة . فاذا الأحلام تأخذني : ها جبال بيضاء مكسوة ثلجا تدعوني ، ها طرق جديدة ام أعهدها قبلا ، ها طيور بيضاء تبلغني رسائل آتية من بعيد .. ووجدتني أسير في طريق شديد الانحناء ووجدتني أسرع السير ، رجلاي تطوي الارض طيا ، وظهري مستقيم وعمودي الفقري صلب ، وكنت ألبس لباساً ابيض ذا خطوط زرقاء . وعند السنديانة الكبرى توقفت . التفت إلى الطرق المنتصبة أمامي. اخترت اضيقها قائلا: لاشك انها اقصر الطرق : سرت مدة من الزمن حتى بلغت طريقا فرعيا ، سرت فيه قليلا ولاح لي في البعيد كوخ صغير أسرعت الخطو . وعند شجرة السرو المنتصبة أمام الكوخ وجدت حورية جميلة حَدّ الاعجاز تنتظرني قالت : لم تأخرت ؟ قلت : ها قد جئت ! قالت : تعال ... سرنا معا في طريق ضيق كانت البساتين تبدو في أسفل الجبل خضراء ... أهذه نعم من الإلاه الذى خلق البشر ؟ أم هي جنان لم تدنس بعد ! قالت بعد صمت قصير : اياك والعثرات هنا ، الموت حي لا يغيب . قلت : لست أحدب كما تتصورين قالت : اعلم :.

وعندما بلغنا سنديانة وارفة الظلال مستكينة على حافة « وادي المسك » ، ارتقيناها معا ، لمْ اجد صعوبة تذكر . كانني خلقت للتسلق منذ الازل . قالت : انظر الى اعلى ... هنا .. النظر غير محدود ، وكل الآفاق تلتقي عند نقطة واحدة. وفجأة ضمتني ودلفنا إلى عش استكنا فيه. احسست بالدفء والراحة والسعادة ... وشعرت ان زمن العشق الذى طالما راودني حلما زنبقيا ولحنا جذلا وطربا اليفا قد عمّ الاصقاع والبيوتات والظلال والآفاق .

وكانت حمائم بيضاء ناصحة الأصوات ممتدة الاعناق قد تعالت في اجواء فضية ألعابا اخاذة ..

كانت الشمس لذيذة ، لذيذة ، وهي تدخل الشرايين المفتحة للربيع القادم ... اردت القيام فاذا بي متجذر في ارض عراء اقعد عمني اليباس . اذرعي مغروسة في الأرض وقلبي تفور منه الدماء صاعدة إلى اعلى وغائصة في اعماق الثرى . وجيب القلب يهفو هل هو الموت ؟ ام هو الاجهاد ؟ اردت القيام . لم استطع التحرك . لكن عزمت على القيام بشؤوني العادية رغم كل الاعياء . وتطلعت الى الحدبة فاذا هي شجرة سامقة قد امتدت فروعها إلى السماء ورايت عصافير ذات مناقر مدببة تزدحم عبر الأوراق باحثة عن الظل وساعية إلى القيام باعشاشها ، كانت الشجرة وارفة ، سامقة ، طرية تصورت قضيتي . ما العمل ؟

ورغم ذلك قررت أن أواصل العمل وممارسة شؤوني الخاصة . أعرف أن مشكلتي الآن مشكلة عويصة ، ومع ذلك فانني اتحمل كل شيء من أجل حدبتي ، ومن أجل شجرتي .

تلك أيها السادة ، قصتي التي اردت أن ابثها لكم ، وارجوكم ألا تسرعوا في الطريق واذا اعترضكم رجل محني الظهر يحمل شجرة الاتعاب فوق ظهره ، فاتركوا له الطريق ، وتجنبوه ، واني ارجو من كافة السلط أن تضع في كل المفترقات علامة خاصة ارجو ان تضمن عبر دروس السياقة الرائجة في عصرنا الحاضر ، وذات السوق النافقة ، واني لشاكر لكم حسن الاصغاء وللصديق العزيز مصطفى المدايني ألف تحية .

مصطفى المداينى

ننشـر في العـدد القـادم

تاريـخ السقاية بصفاقس .... بقلـم : محمد الشعبوني

الزاد بعد غد.. عبور

شعر : رجب بن مهني

① عـودة
يعود من رحلته الأخيرة الشتاء
ويمنح الإغماء للدروب
فتقفر الشوارع
ويعتريها الموت والشحوب
وقاتلٌ يشجّ رأس الحبّ بالسكين
لقد أضاعت رشدها الأيام
لقد أضاعت رشدها الأحلام
ما يقول العمر ؟
أهكذا يخيب ؟!
أهكذا تنطلق الشرارة العمياء
في الهشيم
قد ضاع كلّ شيء
العقل والقلوب
في برك الدّماء
في لعنة الخطوب
قد أنشبت أظفارها في لحمنا الصقور
والغربان
وعششت في رئتينا النار
ترى العيون تبصق اندهاشها .
في تونس الخضراء سم الحقد
وعندها يخيب في الشوارع الطالب
والمطلوب
وعندها يموت في الأزقة الغالب
والمغلوب
وعندها تُمتهن الشعوب
يعود من رحلتها الشتاء ..
ليحمل الحرّ الذي يَصْهَرُنَا كشمعة .
كجمرة في موقد كبير
هذا انفصال الفصل عن عباءة الدفء
إلى التفجر الخطير
ما عاد لي غير فؤاد باهت كسير
من طوق الحمائم البيضاء ؟
من علّقها في السقفِ ؟
بل من خانها ؟؟
في تونس الخضراء بحر من دم ونار

يرفّ في صدورنا فيض الرّدى والحزن
الخبز ... ها دحرجنا
الخبز ... ها زلزلنا
الخبز والأسعار !
وموجة العنف على صدورنا قد جثمت
تسطر القرار
يا تونس الخضراء يا حبيبة الجميع
إليك ها نعود
لنحمل الشمس إلى كفيك والورود
فكلنا لا بد أن نكون في رحابك الجنود
إليك يا رفيقة الأفراح والأحزان .
نرفع في سمائك البنود

② صبـــاح
مثلما ينعى ضياء الشمس اشعاع القمر
يهرب الماضي من الحاضر
ويضوع المسك في كلّ الدّروب
تُفرش الأرض ندى
ثم سياط الضوء تطويها
مثلما تشتاق للزهر فراشات
يجيء العاملون
يحملون القلب في الصدر صباحا .

③ زاد
شمعتان وسكون
كوخ ملاح فقير يتحدّى العتمه
يمتطي هذا الحصير
قاربا في ضفة النسيان
يثني ركبتيه
شاخصا
لرؤى مشلولة أو هرمه

④ بعد غد
وضع الكفّ على الأحشاء
تملى وجه النّاس
وأصغى
لم تمهله الريح
أثارت زوبعة الاحساس
بكى
قد عصب البطن ليجهض أنات الأنفاس
هل بعد غد
يتمنطق بالياقوت ويشرب
ما في الكأس

⑤ عبـــور :
جفنها يكفي لإرهاب قبيلة
ومض البرق ومرت
ثمّ دوّى الرّعد ..

رجب بن مهني

دور الثقافة في التنمية الاقتصادية

بقلم : مبارك العراقي

عندما نتحدث عن الثقافة لا نريد ان نجعل منها هدفا فى حد ذاتها ، وانما هى وسيلة ناجعة لرفع مستوى الجماهير فى كافة ميادين حياتهم ، ومنحهم القوة والعزم والصمود امام الصعوبات والعراقيل التى تعترض طريقهم فى هذا المعترك الحيوى الهائل باعتبار ان الثقافة تعنى الاستقامة واصلاح المعوج كما تعنى الحلق والابتكار والتلاؤم مع الواقع حيث تمثل كل القيم السائدة فى مجتمع ما وتعبر عن الاساطير والطقوس واساليب الحياة والمؤسسات الدينية والتعليمية فى ذلك المجتمع .

واذا كانت الثقافية لم تعرف بهذا المعنى ولم تفسر بهذا المفهوم الا فى عصر النهضة فيمكن القول بانها وجدت منذ وجود المجتمعات الانسانية وجرت فى عروقهم حيث كانت ثقافتهم هى حياتهم اليومية والعكس صحيح اى ان هناك ثقافة تلقائية او بدائية تعايش الناس وتلازمهم كظلهم دون ان يشعروا بها كما هو الحال اليوم حيث تعددت وسائل الثقافة واتسعت مفاهيمها ومشمولاتها . فالثقافة كما يعرفها المفكر الانقليزى تايلور هى :

ذلك الكل المركب الذى يشمل المعرفة والعقيدة والفن والاخلاق والقانون ... والعادات والقدرات التى يكتسبها الانسان بصفته عضوا فى مجتمع ما .

امّا الاستاذ سلامة موسى فيرى : « ان الثقافة علوم وفنون وفلسفات وعادات وتقاليد واتجاهات تكسبنا جميعها مزاجا معينا نتجه به فى مسيرتنا ومعاشنا ونؤسس به مجتمعا يتفق ومبادىء هذه المعارف والافكار ، ولا يتنافر معها ، بخلاف الحضارة فهى ما نعمل به من ادوات ووسائل سواء

كانت حسية مثل مواد البناء وآنية الطبخ أو آلات ومصنوعات أخرى ٠ أو كانت معنوية مثل المؤسسات الاجتماعية المختلفة كالحكومة والمجلس النيابي والبلدى الخ .. » ومن هنا نفهم ان الثقافة هي أساس الحضارة وانها سابقة لها ومؤدية اليها ، باعتبار ان الثقافة فكرة والحضارة مادة ، وان التعرف يؤدى الى التاثر وهذا يؤدى الى التحرك والعمل . وكل تحرك نحو اقتصاد عصرى قوى يحتاج الى تحرك ثقافى وتغيير جذرى للاذهان والعقول حيث يتم هذا التغيير والتطور بصفة تدريجية وعلى مراحل معقولة .

وهذا ما جعل الانتفاضات والانقلابات العسكرية المتعاقبة فى البلد الواحد ، ليس من شأنها أن تساعد على بناء اقتصاد متين وخلق ثقافة مزدهرة ، لانها تطيح فى لحظات بكل المقومات الثقافية والاقتصادية لتلك الامة دون ان تعوضها بمقومات جديدة اذ يستحيل عليها ذلك فى وقت وجيز ، ولانه ليس من الميسور ان يتغير ضمير الانسان وعقليته بالسرعة التى تقتضيها الثورة فحين يترك هذا الانسان تقاليده وميزان الفضائل والرذائل الذى ورثه يحتاج الى ان يستبدل بهما ميزانا جديدا وتقاليد جديدة .

لكن الثورة لا تسعفه بذلك فيعيش السنوات فى فوضى اخلاقية واجتماعية واقتصادية » .

ومن هنا ندرك مدى الاهمية التى يعلقها الرئيس الجليل على الاستقرار والوحدة القومية باعتبارهما الضامن الوحيد للازدهار الثقافى والتطور الاقتصادى والرقى الاجتماعى وان فخامة الرئيس ليؤكد فى عديد المناسبات بان نجاحنا فى معركتنا الاقتصادية والاجتماعية يتوقف على النهضة الثقافية وتوعية الجماهير الشعبية حتى تساهم بكل تلقائية وجد وعن اقتناع فى تحقيق الاقلاع الاقتصادى وكسب المعركة التى نخوضها ضد التخلف بجميع وجوهه واشكاله حيث انقضى الزمن الذى كانت فيه الثقافة مقتصرة على نخبة معينة محظوظة فى حين يبقى السواد الاعظم من أفراد الشعب سابحا فى بحور الجهالة والظلام دون ان يجد من يفكر فى تسليته ورفع مستواه الذهنى . وجاء العهد البورقيبى الزاهر فنزلت الثقافة الى مستوى الجماهير وتوفرت وسائلها وتعددت هياكلها لان هذا النظام يفضل ان يحكم شعبا واعيا مثقفا بما يترتب عن ذلك من صعوبة قيادية على ان يحكم شعبا جاهلا بسيطا يساق كالانعام ، وقد مات فيه كل تفكير وطموح .

ولقد كانت المجتمعات القديمة قبل الثورة الصناعية الاوربية تقوم على مجموعة من القوالب والتنظيمات التى تتحكم فى علاقاتها وتنظم جوانب نشاطها فكان ثالوث الاسرة والدين والقرية هو الذى ينظم ويتحكم فى سلوك الافراد ، ويفرض عليهم الانضباط ، ويرسم للمجتمع اهدافه ووسائله لكن المجتمعات الريفية قد تغير كيانها بعد الثورة الصناعية وغيرتها المدنية الحديثة وسلبتها كل مصادر القوة التاريخية المتمثلة فى تأثير الاسرة والدين والقرية على النظام الاجتماعى والاقتصادى وارتد دورها الثقافى لتحل محله التشريعات الوضعية والمؤسسات الحديثة ، فحد هذا من سلطان الثالوث المتقدم ذكره .

على ان الثقافة فى هذا العصر قد تعددت وسائلها وخاصة السمعية والبصرية منها واصبح لها مفعول السحر فى تطور عقول الجماهير واذهانهم ، وفتح بصائرهم على واقعهم الذى يعيشونه ومساعدتهم على تغيير هذا الواقع بما يتماشى ودفع عملية النمو الاقتصادى اشواطا الى الامام خاصة وان التنمية الاقتصادية هى : « ضبط مخطط محكم لاستخدام الموارد الاقتصادية المعروفة بطريقة أكمل واقوى » وان النجاح فى هذا المخطط وفى استخدام الموارد لا يكون مضمونا الا بالتوعية والتثقيف وصقل الاذهان والعقول وتغيير ما بالنفوس من تقاليد بالية وعصبية قبلية وانانية وجمود وان للثقافة دورها الفعال فى قلب الاوضاع والمفاهيم التى تعرقل مسيرة التنمية الاقتصادية . وقد ثبت بما لا يدع للشك مجالا ان العامل المثقف المتعلم يكون مردوده اجود واكثر وانتاجيته احسن من العامل الامى الجاهل ، وهذا ما يفسر لنا كثرة الانتاج وجودته وحسن الانتاجية فى الامم المتقدمة التى تسلط نور العقل على ما يعترضها من مشاكل ، وتستعمل الطرق العلمية الحديثة والوسائل العصرية فى استخدام مواردها مما يجعل اقتصادها فى ازدهار مستمر وعلى العكس من ذلك الدول غير النامية المتخلفة التى تعانى من النقص فى الانتاج ومن تدهور الانتاجية ، رغم وفرة المواد الخام فى البعض منها .

ومن خصائص المجتمعات غير النامية انها مجتمعات صغيرة منعزلة ، نسبة الامية فيها مرتفعة وهى متجانسة وإحساسها قوى بالتضامن الجماعى ، يمتاز اقتصادها ببساطة التكنلوجيا والانتاج المشترك ، والاستقلال الاقتصادى ، ودعم التخصص أو تقسيم العمل نيجة التخلف التكنلوجى ، وسلوكها تقليدى تلقائى شخصى لا يحتمل النقد والاعتراض وهو عائلى

حيث ان نسق القرابة يحدد كل مظاهر وانماط السلوك الفردى والجماعى على السواء . واحكام افراد هذه المجتمعات تعتبر شخصية باطنية ذاتية بعيدة عن المنطق والمعقول .

فالفلاح مثلا فى المجتمع الريفى يعتبر مركزا حضاريا وليس مركزا مهنيا فحسب اى ان الفلاح هو حامل للثقافة الريفية وليس مجرد شخص يمتهن الزراعة لان الزراعة ليست مهنة فقط وانما هى كل ثقافى متكامل . اما المجتمعات النامية فمن خصائصها انها : كبيرة الحجم والتعقد والتباين وتقسيم العمل وارتفاع المستوى التكنولوجى واختلاف سلوك الافراد وعدم التجانس والتفكك وسيادة القانون وتقدم العلوم وسيادة الروح الفردية والاتجاه المادى .

ولا بد هنا من التاكيد على ان الانسان فى المجتمعات المتخلفة غير النامية لا يقل ذكاء وقدرة على الخلق والابداع وصنع الحضارة عن اخيه الانسان فى المجتمعات النامية وان وصمة التخلف التى يعانيها تعتبر دورة من دورات الحياة التى نبعت من خارج ذاته وانها نتيجة ظروف وملابسات قدر له ان يعيشها وان قوته الكامنة فى ذاته والتى لا يقدر احد على سلبها منه هى التى ستحقق له النصر على التخلف وتضمن له الازدهار الاقتصادى بشرط ان يسلك طريق الوعى ويكرع من مناهل الثقافة المتعددة ، ويسعى الى تغيير ما بنفسه امتثالا لقوله تعالى : « ان الله لا يغير ما بقوم حتى يغيروا ما بانفسهم » . لانه من المؤسف حقا ان نرى الاقتصاد فى الدول غير النامية توجهه العادات والتقاليد لا الاسواق ، فنجد العلاقات الاقتصادية كالعلاقات الاجتماعية تحكمها التقاليد البالية ولا يلعب السوق فيها الا دورا ثانويا ، وانتاجها يقوم على اساس محلى اكثر مما يقوم على اساس البيع فى سوق عام لا شخصية له . ومالكو الارض يستخدمونها بالوسائل التقليدية المتوارثة منذ القدم بحيث لا يحفزهم حافز المصلحة العامة الى ادخال الآلات الحديثة وتعصير زراعتهم .

ومن هنا ندرك العلاقة المتينة بين الثقافة والتنمية لان العادات والتقاليد نعتبرها عناصر ثقافية لا بد من التغلب عليها بفضل التوعية المستمرة وخلق ثقافة متحركة رائدة تدفع بهؤلاء الناس فى طريق التطور ومسايرة قافلة الحضارة .

ومن الجدير بالذكر ان الدول غير النامية اصبحت شاعرة أكثر من اى وقت مضى بانها فعلا متخلفة الامر الذى يجبرها على استخدام كل امكانياتها لتصنيع بلادها وتعصير اقتصادها وعدم قناعتها بالزراعة فقط ، بل عليها لتطور فلاحتها ان تقوم بقدر امكانياتها بانشاء صناعات للنسيج ومصانع ومعامل لتكرير النفط والسكر .... وغير ذلك من المنشآت الصناعية التى تلحقها بصف الدول النامية والمتقدمة .

والحقيقة التى أقولها بكل فخر وبدون غرور : إن بلادنا التونسية لا يمكن تصنيفها الآن ضمن الدول المتخلفة آنفة الذكر ـ وهذا بشهادة خبراء دوليين فى الاقتصاد ـ حيث سعت ولا تزال تسعى جاهدة لتجاوز هذه المرحلة ، ولم تعد تنطبق عليها بعض المقاييس المذكورة للدول المتخلفة بفضل القيادة الرشيدة التى التزمت بمجموعة من المبادىء ازاء شعبها الوفى مثل الاعتراف بمجهود الفرد وتشريكه فى تحمل المسؤوليات وتشجيعه على الخلق والابتكار واحترام الوازع الشخصى لديه واقناعه بعدم طغيان مصلحته الخاصة على المصلحة العامة بحيث يجعل من الملكية وظيفة اجتماعية ، كما تمكنت هذه القيادة من انشاء مجموعة من المعامل والمصانع وشجعت الصناعات الثقيلة والمتوسطة التى استوعبت عددا لا بأس به من الايدى العاملة كما شجعت رؤوس الاموال الاجنبية على استثمارها فى تونس لخلق المزيد من مواطن الشغل والاحتكاك بالخبرات الاجنبية لرفع المستوى المهنى للعامل التونسى الى جانب توعيته وتثقيفه ورفع مستواه الذهنى بفضل مجموعة من الهياكل الثقافية المنتشرة فى كل نقاط الجمهورية والتى لعبت دورا هاما فى تغيير عقلية المواطن وتوسيع آفاق تفكيره وجعله يتقبل الاصلاحات والمخططات الاقتصادية عن تبصر واقتناع ويساهم فى انجاحها بكل حماس واندفاع .

ومن خلال كل ذلك ندرك مدى الدور الهام والخطير الذى تلعبه الثقافة فى تحقيق النهضة الاقتصادية وانجاح مخططات التنمية لدى الشعوب حيث ادرك الاستاذ محمد مزالى خطورة الدور الذى تقوم به الثقافة فجعلها ركنا من أركان السياسة فهو يقول : « **الثقافة ركن من أركان السياسة ، وان شعبا لا يعتنى بالثقافة هو شعب منقوص** » .

واذا كان هذا دور الثقافة وهذه مكانتها التى اعترف بها قادة الدول ، فانه ـ والحق يقال ـ لا يزال البون شاسعا بين ما يرصد للثقافة من اعتمادات

وامكانيات مادية ضئيلة وبين خطورة الدور الذى تلعبه فى رفع مستوى المواطن فى كافة ميادين حياته .

تنشيط الهياكل الثقافية :

مما لا ريب فيه ان الثقافة لم تعد امرا كماليا يمكن الاستغناء عنه بل أصبحت اليوم من عوامل النهوض بالانسان ورفع مستواه فى كافة ميادين حياته ، حيث يجد الغذاء الروحى الذى يوسع أفق تفكيره ويحسن مردوده العملى باعتبار الانشطة الثقافية المختلفة التى تقدم له فيجد فيها الى جانب التثقيف والتوعية التسلية من عناء العمل والكد فى سبيل القوت ، قلت : اذا اعتبرنا هذا المفهوم لوظيفة الثقافة فان التنشيط الثقافى للهياكل والمؤسسات الثقافية يصبح من أوكد الضروريات خاصة بعد ان تغيرت تلك النظرة التقليدية للثقافة وحاول المسؤولون عن حظوظها ان يعطوها نفسا جديدا يدخلها فى الدورة الاقتصادية لتصبح من عوامل التنمية والازدهار الاقتصادى نظرا للعلاقة المتينة التى تربط بين القطاعين . فالتنشيط الثقافى حينئذ يصبح ضرورة اكيدة لتحريك الهياكل الثقافية واخراجها من الجمود والروتين ، ولان ديمقراطية الثقافة تحتم علينا تشريك المستهلك للانتاج الثقافى فى عملية اختيار المواضيع ، واقتراح الانشطة التى يراها ضرورية لخلق ارضية للحوار واللقاء الفكرى . ومن هنا وجب الابتعاد عن الاساليب البالية والعقيمة فى التنشيط الثقافى مثل المنابر الثقافية التى تعتمد الخطابة والوعظ والارشاد ، وتجعل من المشرف على النشاط جهاز ارسال وبقية الحاضرين جهاز التقاط . فلا بد حينئذ من اعتماد طريقة الحوار والنقاش ومقارعة الحجة بالحجة وترك المستهلك للثقافة يساهم فى الحوار وابداء الراى ويشارك فى ضبط وتخطيط البرامج الثقافية باعتباره المعنى اكثر من غيره بهذه البرامج والمخططات ، ولقد انتشرت فى اغلب نقاط الجمهورية مجموعة من الهياكل الثقافية والمكتبات العمومية وهى تقوم بدور ايجابى فى توعية المواطن وتثقيفه سواء بواسطة الكتب والنشريات والصحف والمجلات أو بواسطة المنابر الحرة والعروض المسرحية والسنمائية والنوادى والتنظيمات المختلفة داخل دور الشعب والثقافة لكن هذه الهياكل فى حاجة اكيدة الى مزيد الدعم والعناية سواء من حيث التجهيز بالوسائل السمعية البصرية التى اصبح لها دور فعال فى توعية الجماهير الشعبية فى عصر تعددت فيه أمثال هذه الوسائل التى أسرت الالباب وسيطرت على

العقول ، وكذلك بعض التجهيزات التى تتطلبها بعض النوادى الممكن بعثها فى دور الشعب والثقافة مثل نادى التصوير الشمسى ونادى التسفير ، ونادى الكهرباء ونادى المسرح والالعاب الفكرية ، ونادى العلوم الطبيعية الخ • قلت سواء من حيث التجهيز او الدعم المادى بتخصيص الاعتمادات اللازمة لتحقيق البرامج الثقافية التى تضبطها هذه الهياكل •

وقس على دور الشعب والثقافة المكتبات العمومية التى تعتبر مراكز اشعاع ثقافى فى جهاتها والتى تحتاج الى مزيد العناية والدعم المستمر سواء من حيث تغذية رصيدها بالكتب الجديدة بصفة دورية وحسب رغبات القراء واقتراحاتهم ، والسعى بقدر الامكان الى خلق توازن بين الجهات فى توزيع الكتب وتقوية ارصدة المكتبات ، او من حيث العناية بالمجلات وترميمها وادخال الاصلاحات الضرورية عليها كحل وقتى فى انتظار توفر الامكانيات وتظافر الجهود لبناء المحلات اللائقة ببنوك الثقافة .

على ان موضوع التنشيط الثقافى وبعث حركية فى المؤسسات الثقافية يصبح لاغيا اذا لم تتوفر الوسائل والتجهيزات الضرورية لخلق المناخ الملائم لبعث الحيوية والنشاط والحركة فى اجسام هذه الهياكل •

كذلك العنصر البشرى المشرف على هذه المؤسسات فى حاجة ماسة إلى الرعاية والمساندة والتشجيع حيث برهن فى كل المناسبات على الشعور بالمسؤولية ولا يزال مصمما على ان يخلق من الضعف قوة ، وان يضحى فى سبيل ازدهار المؤسسة التى يشرف على حظوظها ، وان يتحمل مسؤولية كاملة ، وهو ساع بقدر امكانياته الى ان يكون المنشط الكفء والمرشد الامين الذى يأخذ بيد المواطن ويقدم له الغذاء الثقافى الذى يسليه ويجدد قواه حيث يقبل من جديد على عمله بكل حيوية ونشاط غير أن الحديث عن التنشيط الثقافى يجرنا حتما الى معرفة المنشط الذى يعتبر المحرك الاساسى لكل نشاط ثقافى والمشجع على الخلق والابداع والباعث لروح الحياة فى الهياكل الميتة .

ومن هنا ينبغى ان يكون هذا المنشط مطلعا او ملما على الاقل بكل المواضيع والقضايا التى تصلح لان تكون ارضية للنقاش والحوار ، بحيث تكون منطلقا لعمل ثقافى هادف وناجع ، اى ان تكون لهذا المنشط ثقافة شاملة وتتوفر فيه تلك الصفات والمزايا التى تؤهله لجلب الرواد من شباب وكهول

بفضل تضلعه فى علم النفس ، ومعرفة ميول هؤلاء ورغباتهم مع افساح المجال لكل المواهب ومساعدتها على ان تينع فى جو الحرية الكاملة . ومن المحاولات الايجابية لتنشيط الهياكل الثقافية تاسيس نواد داخل دور الشعب والثقافة يختلف نشاطها باختلاف ميول ورغبات رواد هذه الدور مثل نادى الادب ونادى الشطرنج او نادى التصوير الشمسى او نادى المسرح الخ .. لان هذه النوادى ـ حيث تجد على راسها من ينشطها ـ من شأنها ان تخلق حركية ثقافية داخل الدار وتجلب العديد من الشباب والكهول الذين يجدون فيها ما يشبع ميولهم ورغباتهم ، وبالتالى يقضون اوقاتهم فيما يعود عليهم بالنفع عوض ان تغص بهم المقاهى وتضييع أوقاتهم فى لعب الورق . كذلك من المحاولات الايجابية للتنشيط الثقافى تاسيس جمعيات أحباء المكتبة والكتاب بالنسبة للمكتبات العمومية لان هذه الجمعيات من بين أهدافها التعريف بالمكتبة والحث على المطالعة وربط الصلة بين المنتج والمستهلك لمواد المطالعة وتحسيس العائلة باهمية الدور الذى يلعبه الكتاب فى حياة الطفل ، والمساهمة فى التظاهرات الثقافية ـ خاصة ـ التى لها صلة متينة بالكتاب والمطبوع بصفة عامة ، بحيث تتوسع هذه الجمعيات فى أداء مهمتها فتجرى المسابقات بين الرواد لمزيد التعريف بالانتاج التونسى مثلا ، وتثير النقاش حول كتاب معين بحضور مؤلفه ، وتقيم معارض الكتب خاصة فى المناسبات الدينية والوطنية لمزيد الحث على مصادقة الكتاب ومعاشرته باعتباره أساس الثقافة . وهكذا نرى أن هذه الجمعيات يمكن ان تساهم فى ازدهار بنوك الثقافة اذا وجدت المساندة والتشجيع المادى والادبى من طرف أحباء الكتاب والساهرين على حظوظ الثقافة فى بلادنا .

ولا بد من الاشارة هنا الى ان موضوع التنشيط الثقافى يختلف باختلاف علاقته بالحدث الثقافى او البيئة او التكوين او الخلق والابتكار .

والحدث يمكن تعريفه بانه عمل ثقافى بسيط يستغل فيه المنشط مختلف وسائل التعبير من موسيقى ورسم ومسرح الخ .. ويقصد به عادة الجمهور الذى لا يتردد على المؤسسات الثقافية لانه ينتظم بالساحات العامة بحيث يقع استغلال هذا الحدث الثقافى لتبصير المواطن وتوعيته ببعض القضايا التى تشغل باله .

أما علاقة التنشيط الثقافى بالبيئة فالهدف منها تقريب الانتاج الفكرى والفنى من الجمهور ، حيث يقوم المنشط بدور الوسيط بين الجمهور ورجال

الفكر فيتم التقاء الطرفين ويحصل التفاعل بينهما مما يكون له الاثر الفعال في تكوين ورفع مستوى المواطن . ويهدف التنشيط من اجل التكوين الى خلق ملكة النقد لدى الافراد لتحديد قيمة ومكانة العمل الثقافي ومدى فائدته حيث يتوسط المنشط بين العمل الفكري والفني وبين الجمهور فيساعد على قراءة الانتاج وفهمه ومدى نجاعته في توحيد سير الاحداث التي يعيشها المواطن .

أما التنشيط الثقافي من اجل الخلق فهو الذي يتجاوز فيه المنشط حدود العمل الفكري ومناقشة التراث الى الحث والمساعدة على الابتكار ، وهذا النوع من التنشيط نعتبره هاما جدا لحاجتنا الاكيدة الى الفكر الخلاق الذي يخرج النظريات من حيز القوة الى حيز الفعل ، ويساهم بصفة ملموسة وجدية في انعاش حياتنا الفكرية وتدعيم نهضتنا الثقافية .

مبارك العمراني

مصادر البحث :

1 ــ زيادة ثروة الشعوب . تاليف البرت لوتر باخ . ترجمة ابراهيم ميخائيل عودة دار اليقظة العربية .

2 ــ ما هي النهضة ؟ تاليف سلامة موسى . مكتبة المعارف . بيروت .

3 ــ الثقافة والفكر في مواجهة التحدي . تاليف عبد الكريم غلاب . دار الثقافة ــ الدار البيضاء .

4 ــ التخطيط والتنمية الاقتصادية . تاليف روبرت . ج. الكسندر . ترجمة عمر القباني . دار الكرنك للنشر والطبع والتوزيع . القاهرة 1964 مجموعة الكتب المترجمة .

5 ــ تنمية المجتمعات المتخلفة . تاليف ريمونه فروست . ترجمة أحمد قاسم جودة . دار الكرنك للنشر والطبع والتوزيع . القاهرة 1964 . (المكتبة الاقتصادية II) .

6 ــ الوان من ثقافة الشعوب . تاليف روث بندكت ، ترجمة عمر الدسوقي ومن معه . طبع ونشر لجنة البيان العربي .

7 ــ المجتمع القروي وثقافته . تاليف روبرت روفيلد . ترجمة دكتور فاروق محمد العادلي . مطابع الهيئة المصرية للكتاب . 1975 .

8 ــ جريدة العمل التونسية بتاريخ 1980/2/24 .

أنا عـربي ..

شعر : نور الدين بلقاسم

بعث لي أخي ادريس برسالة من باريس سنة 1973 يذكر لي فيها بأنه انتصر على منافسه الالماني في مقابلة الجيدو التي انتظمت بين فريق فرنسي هو من ضمنه ، وفريق ألماني ، وكان ذلك بالمانيا نفسها .

وذكر لي في رسالته بأن المتفرجين والمتفرجات من الالمان لم يأبهوا له في البداية لان ملامحه تدل على أنه غير أوربي . ولما انتصر على منافسه أقبلت عليه الشقراوات يسألنه من أي بلد هو ؟. وكان جو المقابلة الذي وصفه لي قد أثار في نفسي شعورا بالعزة ، فكتبت له القصيدة التالية ، وقلت له :

ـ أجب بها من يسألك من أي بلد أنت !.

يسـائلني وجهها الأشقـرُ : ومن أينَ جئتَ أيا أسْمَـرُ
فقلتُ لها : من بلاد الشمـوس ومن أمّـة مجـدها يكبُـرُ
وحيث يهـدّ الرجال الجبـال لينْبُتَ في أرضنا السكّـرُ
أتيتُ إلى أرضكـم طـالبـا أنا الشرق ـ يا حلوتي ـ يخطرُ
أنا من بـلاد الرجال الكرام عـزائم تأتي بها الأعصـرُ
حكمنا من الهند حتى المحيط فـدانت لنا الأرض .. والأبحـرُ

* * *

فبغـداد تشهـد أنا سبقنـا وأنّا بحيّـز العُـلا أجـدرُ
وجلّـق تعرف كم كان فينـا وكم عـالِم في النُّهـى يبحـرُ !

سلِ القيروان اذا شئت علمــا ... فكلٌّ صغير بها يكبــرُ
وكلُّ قصيرٍ يطول السّهى ... فبالعلم يعلو ويستنسر
وقرطبة قد بناها الجدود ... فكلُّ الموات بها أخضرُ
ومدّت إلى الغرب أحضانها ... فعبٌّ من العلم ما ينـدرُ
فمنها استقى كل فكر جديد ... ومنها بدا فكره يزهـر

* * *

أَلَمْ تسمعي بالكفاح الدّؤوب ... به أمتي في الورى تُنْشَرُ ؟
فَمِنْ أَطْلَسٍ للخليج أقمنا ... حروبا على الجوع لا تُقْهَرُ
وسرْنا نُقَتِّلُ كلَّ عميل ... وكلَّ عدوّ بنا يسخر
ونحفر في قدسنا خندقا ... به ظالم غاصبٌ يُقْبَرُ

* * *

وها نحن نسعى إلى الاتحاد ... برغم الفؤوس التي تحفرُ
فشعبيَ شعب نضال عريق ... وشعب الأسود التي تزأر
أيا حلوتي فانظري للشروق ... تَرَيْ : إنه وطني الأكبرُ
(أنا عربي هنا بينكم ... علامته لونه الأسمرُ) (*)

نور الدين بلقاسم
جوان 1973

(*) البيت الأخير من شعر جعفر ماجد .

حديث في زمن لا يركد عجاجه

قصة : أبي بكر العيادي

حين يعسعس الليل ويجمعنا السهر وتتصاعد أحلام أمي مع أبخرة الشاي على طقطقة البراد ، أسأل أبي الغارق في كنشه يعد ويعيد بقايا راتب الشهر المولود :

— هل مات جدي ؟

يرفع عينين ضيقتين من تحت نظارة سميكة الطوق والزجاج ويقول :

— لا

يعود الى كنشه يطرح أكثر مما يجمع والقلم يرتجف بين أصابعه ثم يضيف دون أن يرفع رأسه :

— جدك لم يمت . جدك لا يموت .

تباغتني الاجابة ، يرتسم سؤال ضخم على وجهي ، أنظر إلى امي استشف خفاياها أغوص في عينيها الزائغتين من أثر البخار أبحث عن الحقيقة ولكن لا أثر للحقيقة في عيني أمي ،

أعود الى والدي أسأله :

— اين هو اذن ؟

فيلوذ بالصمت ، ترتفع الطقطقة توقع نغمات يتمايل لها رأس أمي طربا ، يرفع أبي رأسه ، يضع كنشه ، يخلع نظارته ويقول :

– جدك بين يديك ، ان سعيت إليه جاءك ،ان توانيتَ مر أمامك مر السحاب تراه ولا تدركه .

جدك يا ولدي شمخت بطول أصوله الاغصان .

★ ★ ★

يحدثني جدي يقـول :

حين يتنفس الصبح ينتصب شيوخ القبائل بقصر السلطان . يتعجب السلطان فموسم رفع التهاني لم يحن بعد ، يطوقهم بنظره ، وجوه مهمومة وأعين تدور في محاجر حزينة .

يسألهم :

– ما حاجتـكم ؟

يتنحنح أحد الشيوخ ، يفتح فمـه قائلا :

– مولاي السلطان ، ان الوالي ،،،

فيقاطعـه ثان ، ويتدخل ثالث ويرتفع صوت رابع ، ويتـكلم الجميع ، تتعالى أصواتهم ، يعم الضجيج ، يقع عليهم صوت السلطان كالصاعقة ، فتخمد نارهم وتسـكن حركتهم ،

وحين يأمر السلطان ،،

– ليبدأ خيركم بالـكلام

يخنسون ،، يتبادلون نظرات ورهاء ،، وتظل عيونهم تدور في محاجرها بسرعة ووجل .

يخيم على المجلس صمت ثقيل ،، فجأة يعلو صوت ،،

– أنا أولى من غيري بالـكلام يا مولاي ، أنا من قوم هم الجبال الرواسي عزّا والنجوم الزواهر شرفا : لا يموتون تخمة وانما يموتون قتلا بالرماح وقعصا تحت ظلال السيوف .

يرتفع صوت ثان :

– مولاي السلطان ، ديارنا نجمة الساري ومنارة الملاح ، يأمن فيها التائه من خوف ويطعم من جوع ويلتمس فيها مالا يجده في غيرها من الدعة والسعة .

ويقول ثالث :

– نحن خير القبائل جميعا لنا بيان هو السحر يلعب بالألباب ويأخذ بمجامع القلوب .

ويتحدث رابع وخامس وسادس ،،، كلهم الى الفضل منسوب وبالشرف والسؤدد موصوف ، ما من أحد الا ادعى ان قومه رجحوا على غيرهم برا وفضلا وكرما وعقلا ومجدا ونبلا ، والسلطان يقلب الفكر ، تمتد أصابع يده تتحسس لحيته الكثة ثم ترتفع طلبا للسكون .

– ليتكلم واحد ممن هم عن يساري ثم يليه واحد ممن هم عن يميني .
يتقدم شيخ ، يتحدث يقول :

– يا مولاي ، مضى علينا حين من الدهر تحت سماء ضنت علينا بمائها فعشنا في فقر وعوز بين صخور تسفعها الهاجرة ورمال تغلي الدم وتصهر العظم ، تقتل أولادنا من الفاقة ويأكل بعضنا بعضا من الحاجة ، جعلنا مهادنا الأرض فالتصقنا بها والتصقت بنا فتوحدت نبضاتنا وتماسكت أحشاؤنا واتصلت أرحامنا فأغدقت علينا بفيض خيراتها فتدفقت ينابيعها تبعث الحياة في شراييننا الهامدة .

وصدقنا الانغماس في ما حرمنا منه – حياتنا – عن التطلع إلى ما ينفع ، فانقدنا لرجل يسوسنا ، أكل الحقد قلبه فعز عليه أن يرانا في نعيم فاستأثر بما تدره الارض يغترف ولا يرتوي كأنه كثيب أهيم ...

يتوقف الشيخ قليلا ، يبدو عليه التأثر ، يرسل زفرة طويلة وقبل أن يستأنف يسأله أحد الحاضرين

– واليكم هذا مأفون الرأي تسيره جواريه ؟

يلتفت إليه الشيخ ويرد :

– أي نعم :

يسأله ثان :

– ولسانه أنطق من فعاله ؟

وينفغر فم الشيخ . يتمتم :

أي نعم

ويسأله ثالث :

– أهو قميء يتسامى لا يعرف الا لنفسه فضلا ؟

تعلو الدهشة الشيخ ، وترتسم على زوايا شفتيه وفي حملقة عينيه ، يبدو عليه الوجوم .

يسأله رابع وخامس وسادس ،،،

– أعهد نقض وتسويف ؟ – أله رجال حين تهوى سيوفهم على الرؤوس لا تفكر الا في وفرة الحصاد ؟

– أيقطع لسانا يلهج بغير كلامه ؟

والشيخ فاقد صوته يرد يهز رأسه ويلتفت ذات اليمين وذات الشمال يندهش السلطان ، يندهش الحاضرون ويصمت الشيخ .

وحين يقول السلطان :

– من يليه ؟

يهتف أحد بالشيخ :

– تكلم ، تكلم فأنت لساننا .

★ ★ ★

ويسكت جدي ، لم ينل منه الاعياء ، فجدي لا يفتر ولا يني ، وحين أطلب منه أن يستمر في حديثه يتلكأ ، يتلعثم ، يخجل ، نعم يخجل جدي ويصمت ، تبهت ملامحه وترتج فأرتد حتى لا يتوارى .

بعثة مشلينيا

شعر : سمير الخياري

« ميشلينيا » هو أحد أبطال مسرحية « أهل الكهف » لتوفيق الحكيم . تعرض لتجربة البعث كأصدقائه وحاول الصمود بقلبه المحب وعاطفته الجياشة ولكنه انهزم في آخر الأمر .

توهّج دفقُ العطاءِ
على شفتيك
ورنت كؤوس ارتوائي
فهلاّ طردت فؤادي إليك !
لأن التوزّع فيك
يديم بقائي

أحبّ البقاءَ
لأجل العيون التي أنبتتني ربيعا
على حدقات الخريفْ
أحبّ البقاءَ
لأجل العيون التي رسمتني
مشارفَ فرحه
على ثكنات النزيف
أحبّ البقاءَ

إليك وفيك
لأن البقاءَ
يغيّر لون السّماءِ
يُشيّد هذا الوجود
المصدّع حتى الخواء
ويغسل لوحات قلبي
بعطر الضياء
فأبعث رقصة وجْد
وأوصد كهف انزوائي
وأخرج من مدن الصمتِ
في شفتي شمعدان
وفي كبدي
تتفتح دنيا جديده
وباقات عشق جديده
ونغمة حبّ جديده

وأخرج كي أستردّ القصيده
فإن الذي قد كتبت قبيل التوحد فيك
هـراءُ
وان الذي قد نسجت افتعالٌ
تصدّع منه البناءُ
فلا تحسبيني انتهيتُ
فإنّي بدأتُ
وبعثي عطاءُ
ولا تحسبيني رجعتُ
بوجه بدائي
فكل الوجوه القديمة
صارت حريقا ورائي
وأنت أمامي
بدايات بدئي
ورمز انتمائي
فلا تطرديني بريسكا
فإني مسحت الذي كان لي
في مسائي
فلا تطرديني

ولا تحسبيني رجعتُ
بوجه بدائي
ولا تفزعي
أنا لن أقول :
— « لقد مات قلبي »
فقلبي الحياة التي سوف تبقى
لأنّك حبي
أنا لن أقول :
— « لقد مات قلبي »
لأنّك قلبي
فلا تطرديني
تعالَيْ .. لقد حان وقت احتوائي
ولا تحرميني اللقاء الذي
قد حلمتِ
فإني بعثت لأجل اللقاءِ
وفيٌّ لحبّي أنا
فكيف يهون عليك ..
وفائي ؟!

1985 / 5 / 5

سمـيـر الخـيـاري

قراءة في لوحات البشير بن سلامة القصصية :

الرسم بالكلمات

بقلم : د. محمد عبازه

يعتبر الاستاذ البشير بن سلامة من المثقفين القلائل الذين لم تلههم مسؤولياتهم السياسية عن نشاطهم الفكرى والادبى فزيادة على رئاسة تحرير مجلة الفكر ، لا زال الاستاذ البشير بن سلامة ينتج ويؤلف : ففى ميدان الروايه أنتج « عائشة » ، فى حقل التنظير كتب « نظرية التطعيم الايقاعى فى الفصحى » وفى الابداع القصصى يخرج لنا « لوحات قصصية » وهى موضوعنا هنا الذى ننوى الحديث عنه . فى الحقيقة لقد اعجبت بالعمل وحاولت أن أقرأه فاصطدمت بالعديد من المعيقات والصعوبات التى جعلتنى بطريقة أو بأخرى أبرر السكوت الذى لازمه المثقفون الذين كتبوا عن « عائشة » وأغفلوا هذا العمل الابداعى الذى يحمل فى طياته نفحات تجديدية .

يبدو لى أن صعوبة هذا العمل جاءت من أن المؤلف حاول أن يخرج بالادب التونسى والقصص منه بالخصوص عن التسطيح المغلف بغطاء الواقعية الذى كبل الادب التونسى فى شتى فروعه الابداعية لمدة طويلة .

بعد وقفة أمام هذه اللوحات أو قراءة معمقة لهذه القصص يدرك الانسان أن المؤلف أراد ـ متعمدا ـ أن يهرب بالقصة التونسية عن الواقعية الضيقة الى رحاب النفس الانسانية فى تجاربها الكونية حيث : « يبدو أن غرض الادب هو الكشف عما هو أكثر عمقا من سطح التجربة اليومية العادية ، وهذا يعنى أن الادب نزعة « عقلية نفسية » تستبد باشخاص دون آخرين ويدركها المثقف قبل

المتعلم ، والمستقصى قبل المتتبع ، وان ما تفعله فى المتلقى يختلف من شخص الى آخر ، بمدى ما يمس الأثر شغافه واشتراك الارضية التى يقف عليها كاتب التجربة ومتلقيها . قد يكون هذا النوع من التجارب صوريا ذهنيا ولكن ما يهبه الحياة ارتباطه الوثيق بما هو واقعي علمي واجتماعي . فـلا ثنائية بين الفكـر والواقع ولكنهما قطبان للوجود تتلاحم خلالهما « الظواهـر الاضداد » فتتحد من جديد فى لبوس ليس واحدا منهمـا بالذات ولا غريبا عنهمـا كليا بحركـة حميمة لأزمة تتعدى اطار الرواسم الشكلية » ! (1) .

لقد حاول المؤلف فى هذه اللوحات أن يخرج عن المالوف وأن يأتى بالجديد ، وأن يبتعد ما امكن عن السهل والمألوف والعادى ومن هذا ــ على ما اعتقد ــ جاء غموض هذه التجربة الغموض الذى يخلف كل محاولة تجديدية . وعدم الايمان المحاولة التجديدية هو حرماننا أنفسنا من المعنى الاصيل للقصة المستمدة من الكلمة الايطالية نوفيـلا (Nouvella) الـتى تعنى التجربة غيـر المسبوقـة .
دخل الاستاذ البشير بن سلامة هذه التجربة غير المسبوقة وهذا بحد ذاته مغامرة على كافة الاصعدة : النفسية واللغوية والفكرية ، بهذا العمل دخل الكاتب فى مغامرة نفسية أساسها البحث عن كينونته البشرية ، ولغوية وسـط هذا العالم المليء بالاشارات والرموز حيث تتفق اتفاقا تاما مع المغامرة الاولى . وكانت المغامرة الثالثة هى محاولته توحيد الفنون فى فن واحد يجمع الشعر والموسيقى والرسم والسينما والمسرح . .

لقد بدا وكانه استجاب لمتطلبات الحياة الانسانية عامة وحياة المثقف خاصة فى هذا العصر المأزوم ، حيث « تفرض حركة الحياة على الانسان العربى المعاصر انواعا مختلفة من السلوك مبدعا ومتلقيا تعتبر مقدمة لازمة لتفاعله الاجتماعى وجزءا لا ينفصم عن مجرى صيرورته التطورية ، وخلال هذه الرحلة تتمزق أطر عديدة كانت تشكل نسيج حياته الفر:يـة وتتلاشى متجزئة فيلتئـم بعضهـا بالمعطيات الجديدة ويندثر بعضها الآخر لغرابته عن الاطر الواقعية الفاعلة ويفقد قيمتـه » (2) .

---

(1) شرف ، محمد ياسر ، النثيرة أو القصيدة المضادة ، النادى الادبى، الرياض 1981 ــ ص 74 .
(2) شرف ، محمد ياسر النثيرة أو القصيدة المضادة ، النادى الادبى ــ الرياض 1981 ــ ص 36 .

والشيء الذى استرعى انتباهى فى هذه اللوحات القصصية اكثر مـن غيره هو هذا العالم الرهيب للغة التى نحتها الاستاذ البشير بن سلامة فاثبت بذلك قدرة هذه اللغة على الاستجابة لمتطلبات العصر التعبيرية اذ أنـه استطاع أن يخلق لغة العبور مما هو حاضر الى ما هو مستقبـلي والتى يجـب أن تتحقـق فيها خصيصة التجاوز التى تجعل الادب أداة بناء وتكوين وتشكيل .

عالم البناء والتكوين والتشكيل هو عالم جديد ، عالم المستقبل بالتالى هو عالم لم تتركز قواعده بعد ، ولم ترسخ قيمة كل شيء لا يزال فى طور البحث والتجريب ولذلك خرج فى هذا الثوب الغامض ، هذا هو عالم الاستاذ البشير بن سلامة الموصوف فى لوحاته القصصية ، فهذا التنافر وهـذا الغموض هـو شعريا الغرابة والجميل غريب دائما كما يقول بودلير ، فكل شيء غامض فى هذا الوجود وهذه الحياة الانسانية « فالحقائق غامضة والغايات خفية والشبهات كثيرة والافهام التى هى العدة غير مأمونة الغلط فطريـق النظـر معفى الاثر والباحث المجتهد غير معصوم من الزلل فلذلك تكثر الحيرة عند المباحث اللطيفة وتتشتت الآراء وتتفرق الظنون وتختلف النتائج ويتعذر اليقين .. » (3) .

هذه اللوحات التى تداخل فيها الزمان والمكان وصار التنـوع فى اللحظـة ينظم تجاور العصور وديمومتها . يخيل للقارىء أنه يستحم فى عالم تتجاوب داخله القرون والاصقاع وتتحاور فيه الانسانية مـع الحيوانية وتتصـارع فيه الروح والجسد والوجود والعدم ، والبقاء والفناء ، المادية والصوفية ، عالم المثال وعالم المادة .

فهذه اللوحات القصصية فيها « من الشعر ولعه بالانسان وفيها مـن العلم استنساده الفكر وظل كذلك يناوب هذا عن ذاك يلبس المنطق حينا ويلوذ بالاسطورة أحيانا ، يعرج الى الشعر حين تخاله أشرف عـلى الحقيقة المجردة ، ويعوذ بالمنطق حين تحسبه ضاع فى مغاور الالتباس .. » (4) .

اذن ، محاولة خطيرة أقدمت عليها ولكن ما من ذلك بد ، فلذلـك اسميتهـا

(3) الصديق ، يوسف ، المفاهيـم والالفاظ فى الفلسفـة الحديثة ـ الـدار العربية للكتاب ـ تونس 1976 ص 7 .
(4) نفس المصدر يوسف الصديق ص 15 .

قراءة أو وقفة أمام هذه اللوحات ان صح التعبير ، وبعد كل وقفة أمام لوحة معينة لابد أن ترتسم فى ذهن الانسان فكرة ولو كانت غامضة غموض العمل نفسه ولكن لا مفر من ذلك خاصة بعد أن وقفت طويلا أمام هذه اللوحات حتى أعيانى الوقوف ، وفى الحقيقة لم أشف غليلى نظرا لأنى لم أفهم الشىء الكثير وكم يصعب على الانسان أن يقول لم أفهم ولكن الابداع اذا فهم مات ، فحياته وروعته فى غموضه ، فى استعصائه على الفهم والتشريح .

وعندما قلت قراءة أو وقفة لا أريد تمرير البصر والنظر على السطور ، وليست حتى ذلك التفاعل مع المظاهر وتأويله وبسط مضامينه ، بل هى قبل كل شىء « تفكيك رموز الكتابة قبل قراءتها » (5) . وما أعسر هذه المهمة خاصة عندما تكون الكتابة من نوع ابداعات الاستاذ البشير بن سلامة الذى يجمع فى كتاباته بين التنظير والابداع باحثا متسائلا وهذه ميزة من ميزات الفنان المبدع : « ان الفن يموت بموت التساؤل والبحث والتطلع الى المستقبل ، فالفن يمكن أن يموت بالأسلبة ، بالرواسم ، بالجمود حول التقليدى والمألوف والمبتذل . والفنان الحق متسائل ابدا ، ظامىء الى المعرفة المتزايدة ولا يقنع بما لديه ، ومن الواضح أن التوق الى المعرفة يتنازع مع تحريم البحث عنها . فاذا كان التحريم المفروض جماعيا على البحث والتساؤل هو الاقوى مات الابداع وأصبحت الطاعة هى الخط الهادى للسلوك الادبى ، ولا نكران أن عباقرة الفن هم من أولئك الافذاذ الذين ثابروا على البحث والتجريب وكان لهم من قوة الشخصية ما جعلهم ينظرون نقديا وباستقلال الى كل ما طرح أمامهم .. » (6) .

فالاستاذ البشير بن سلامة متسائل دائما ، باحث باستمرار عن الجديد والمثير والمحير ، فهو من الادباء التونسيين الذين يطرحون الجديد على الدوام وهذا الجديد طبعا يلقى من المعارضين ما يلقى كما يلقى من الانصار المتحمسين والبشير بن سلامة يمكن أن أسميه أديبا طلائعيا نظرا لأنه فنان مصادم والمصادمة تقتضى من العنف الشىء الكثير . بعد أن قمت بجرد لمؤلفات الاستاذ

(5) نفس المصدر يوسف الصديق ص 21 .

(6) نن ، أنييس ، رواية المستقبل ترجمة محمد منقذ الهاشمى ص 6 منشورات وزارة الثقافة والارشاد القومى دمشق 1983 .

البشير بن سلامة وصلت الى نتيجة وهى أن البشير بن سلامة يهوى تفجير القنابل فهو يعمل بينها باستمرار والغريب أنه فى « النار ولا يحترق » فهو مولع بتحريك هذه المتفجرات فتصيبه أحيانا بعض الشظايا ولكن هذا من أخطار المهنة ، ولكنه دائما يخرج منتصرا . وكلمة التفجير من الكلمات التى يستعملها الاستاذ البشير بن سلامة كثيرا فى خطابه الادبى خاصة وهى ذات دلالة عميقة، اذ ان الرجل يكره الاستكانة والاتباعية ، والمجاراة ، والتزلف الى المقدس .

هذا انطباعى وأنا انتقل بين هذه اللوحات مبتسما تارة مفكرا أخرى ، متعجبا ثالثة ، متسائلا رابعة ، حائرا أمام اختلاط هذه الالوان والاشكال والاشخاص ، والاحساسات والرموز باختصار وجدت أنه يدرس الانسان فى علاقته بالكون كما لو كان نجوما أو اشجارا أو سفنا سكرى فى علاقتها بالطيور والسماء والفصول والتيارات ومد البحار . ان الادب القصصى هنا تخلى عن فك البشر والواقعية البشرية .

كان الادب القصصى يفسر الانسان بالانسان اما البشير بن سلامة ففسر الانسان بالعالم والعالم بالانسان .

وبعد ان تحدثنا عن هذه اللوحات بشكل عام دعنا الآن نحاول أن نعطى بعض الانطباعات من مجتهد لم يصب بالتأكيد نظرا لاستحالة الاصابة فى مثل هذه الحالات الشائكة ، الغامضة ، المغرقة فى رمزيتها ، والملتفة فى ثوب «سرياليتها» السميك . وأنا طوال حياتى كلما واجهت أمرا لم أفهمه شككت فى قصورى أولا ولم أتهم أى كاتب باية تهمة كانت ، فعندما تقف أمام اللوحة الاولى : « حب » المفتاح الوحيد أو الباب الوحيد الذى يمكن الولوج منه وسط هذا الظلام الحالك سرعان ما يسد أمامك هذا الباب فتقطب جبينك دلالة تركيز عقلك وكافة قواك المدركة أو الداركة ولكن تبدو عليك علامات العجز أو قل علامات عدم الفهم ، فهذا الحب الذى هو من حيث المنطلق المنطقى انسانى ولكن كانك كنت معلقا فى السماء فتهوى الى قاع البحار المظلمة المليئة بالحياة والحركة ، تسمعها ولا تراها ، تحسها ولا تفسرها ، تتلقى اشاراتها عبر الحدس ولا تستطيع نقلها الى معادلة . فاول ما يلفت انتباهك هذه السمكة النشوى المنطلقة سابحة فى الماء متلهفة الى الحياة والحرية والانعتاق فهذا الماء وبالتالى هذه الحرية تسكرها سكرا صوفيا راقصا حتى تعانق الحياة والامل فى الحياة والامل فى الحب والأمان وسط أضواء باهتة فيبرز التناقض بين لمعان عين السمكة وبين خفوت النور فتنشأ من ذلك لوحة تضاد المتناقضات فى الحياة الكونية فهى

دائما بين مد وجزر ضمن هذه الثنائية الابدية : « لم تكن السمكة فى انطلاقها من ركن الى ركن تحت ألوان من الانوار الباهتة الا طرفة العيـن فى الظـلام يشحذها بريق ، وخفقة القلـب تهفو الى عبيـر الحياة ، أمـلا وتوقا ولهـوا واشتياقا .. » (6) .

فالناظر هنا لهذه اللوحة كأنه يقرأ بل يقرأ شعرا لايقاعها وصورها وأثرها الحسي ، فهي رحلة متشردة وبحث فاوستى عن العالم ونهايته والكون وجدواه والوجود ومأتاه والحيوان وعلاقته بالانسان والطبيعة والكون ، وسط هذا الجو الشاعرى الحزين المرح فى نفس الوقت ، فسعادة الكون ومأساته تتحدان لتعطيا صورة خليطا من البياض والسواد من الحزن والفرح مـن الالم والسعادة ، من الامل واليأس ، من الحرية والقيود ، من الاسر والانعتاق ، من الجمال والماساة، فهذه الثنائية هى انشودة الكون الخالدة يسمعها الانسان منذ وطأت قدماه هذه الأرض ومنذ استعمل عقله فى الوجود وماهيته فى الحياة ونهايتها والجمـال وجدواه فى النفس الانسانية فهى توق الى المطلق واللامحدود والخلود مـن جهة وهى نسيان قهر الواقع للانسان والهروب من الانجراحات الخاصة والفردية من جهة أخرى ، رؤيتان يتعامل بهما الاستاذ البشير بن سلامة مع الفن فهو من جهة عملى يمارس الرياضات ويكابد الجسد ، فكرى يتأمل المطلق والقيم ، واحد يروض البدن وثان يصقل النفس من الداخـل أو يعمل عـلى البدن النفسى : « وافتر صبح عن سن الجفاء ولا جفاء ، فدميت أقدامـه والارض صلب أنـوف وانفصل الزمان عاتيا ظلوما وانتفى اللهو .. » (7) .

فهذه اللوحة أو القصة التى عنونها الاستاذ البشير بن سلامة بـ « حب » هى فى الحقيقة حب فى معناه المادى بنشوته الجنسية « ورجفة جناح » وحب معنوى بمعناه الصوفى الحلاجى وهو حب المطلق التوق الى الانعتاق وكشف أو هتك ستار الحقيقة الازلية « .. تكشفه شمس الحقيقة ، وهذا المزج بين المعنيين أو بين النوعين من الحب هو فى الحقيقة سمة الحياة الانسانية دائما الباحثة عن غريزتها المادية الحيوانية الشهوانية وذلك الشعور أو الهلوسـة بالبحث عـن الحقيقة الوجودية للذات الانسانية والحد بينهما خيط رفيع كالحد بين العبقرية

(6) بن سلامة البشير : لوحات قصصية ـ الدار العربية للكتاب ـ تونس 1984 ص 99 .

(7) بن سلامة البشير : نفس المصدر ص 9 .

والجنون ، يمكن تجاوزه بسهولة عند النفس الانسانية الحائرة في متاهات الوجود والعدم ، في صحارى البحث وغابات المجهول وبحار الشك .

« فهنا يبدو الانسان دعوة لأن يكون ولأن يتوجه ويتقدم ، لان يسمو فوق تناقضاته وفوق نفسه ، وأن يتخطى المألوف والشائع والعمومي والعادي والعاداتي كي يخلق نفسه وعالمه وقدره ، وهنا تظهر الكرامة الصوفية خلقا أو اعادة خلق بشرى للعالم والقوانين ، ويكون التصوف نداء للانسان كي يغير ويثور ويعقل الانا الصميمي وفق قيم الكمال والحكمة والبطولة . وهنا يظهر الفرد صاعدا الى المطلق مستبدنا باستمرار ودون توقف للمثل طامحا للتكامل ولبلوغ ذاك المستوى الاعلى الذي يفصل الانسان عن الله ، وهنا يحاور الانسان الله ، يرضى عن الله ، يقبل الله ويجعله في قلبه وقسما من الذات البشرية عن طوع وبقصد وحرية ، هنا الثورة الصوفية ، هنا فهمها للحرية ولله والآخر والقيم فهما من أسمى والطف ما عرفته الذات العربية وما تستطيع تقديمه للبشرية » (8) ، ويستند الاستاذ البشير بن سلامة في هذه الظاهرة أي الظاهرة الصوفية الى تراث ضارب في الماضي السحيق ، جذوره ممتدة عبر أحقاب وأزمان فأصله ثابت في الارض وفرعه في السماء . الاستاذ البشير بن سلامة في تعامله مع التراث اللغوي والحضاري للامة العربية الاسلامية ينطلق من مبدا الخلق والاضافة والتوظيف ، الخلق أي اعادة النفس الجديد والشحنة الحية لهذا التراث فهو عبارة عن الطبيب الذي يضغط على صدر من توقف قلبه عن النبض حتى يعيده للحياة وللوجود . ومن ناحية الاضافة فهو لا يتعامل مع التراث على أساس أنه مقدس وبناء عليه لا يمكن مسه أو تحريكه فابن سلامة عندما ينظر الى المصباح الذي وجده في متحف التاريخ لا ينظر اليه على حاله ويستعمله على حاله بل ينظر اليه على أساس أنه كهربائي ، والتوظيف أي توظيف هذا التراث عند الاستاذ البشير بن سلامة حتى يعبر عن هموم الانسان العربي المعاصر في خضم هذه الصراعات الحضارية وفي متاهات هذا التقدم العلمي الذي أصبح العربي فيه مستهلكا وليس منتجا ، متقبلا وليس بانيا ، فهذا التوظيف نابع من غيرة الاستاذ البشير بن سلامة على هذه الثقافة العربية ولغتها أساسا : يريد أن يجعلها اداة ابداع وخلق وتجديد وليس أداة شروح فقهية ومعلقات ومقامات . ان دقة الملاحظة وامتلاك القدرة الفائقة على تصور اللغة والالفاظ

(7) د/زيعور ، علي : الكرامة الصوفية والاسطورة والحلم ، دار الطليعة ، بيروت ط ـ 1 ، 1977 ـ ص 9 .

وعلاقاتها وتقاطع تلك الدلالات اللفظية جعل من الاستاذ البشير خالقا لصور لغوية وتقاطعات دلالية من نوع خاص معبرا بها عن آلام الحياة وآمالها، عن عذابات الحياة ومسراتها عن مصير الانسان وفنائه ، عن توه الانسان وسط خضم هذا الصراع الأزلي بين الكائن البشرى المحدود الفاعلية وبين الكون اللامتناهي وسخريته من الانسان « وشده اليها خيط ابرته تخز قلبه ثم تدميه وراح بكفيه يعتصر ألما شفافا من ورائه ذوب دمع وبراعم حزن ، فلم يعرف وجهه فيها ولا استشف نسيج اللهو بين خيوطها » (9) . جمل قصيرة لامعة مخالفة للمألوف دقيقة هدفها أن توحى وتوجه بين مختلف رؤى العالم هذه الوحدة التى يبحث عنها المتصوفون عبر رحلاتهم المعرفية فالاستاذ البشير بن سلامة يوحى لك بكلمات بسيطة ومعبرة عن عذابات الانسان في هذا الوجود ، عن عذابات الانسان أمام قوى الطبيعة الباطشة الفتاكة ، عن الم الانسان الباحث دائما عن الحقيقة وسر الوجود والذى سرعان ما يصطدم بالواقع الانسانى ذى الحدود الضيقة والآفاق المسدودة . كل شيء يؤلم الانسان ويدمى قلبه او بالأحرى ذلك الوخز بالابر للقلب ، القلب الانسانى المتالم فى عذابات الشك وآلام الوجود ذلك الوجود ألذى لا يستكين الا ليعيد ثانية تذكير الانسان بعجزه وفظاعته أمام الفناء والعدم ، أمام الموت والاندثار « ثم اشتد الاسر خيوطا حريرا ولا كالحرير» فهذا السرد السحرى فى بهائه وتفرده فى تعبيره عن عجز الانسان وتصوره فى هذا الكون الشاسع الغامض الى درجة الابهام ، فرغم نعومة الحرير ودقة خيوطه فانها تبدو للانسان العاجز سلاسل وأصفادا لا يستطيع زحزحتها عن كاهله المثقل بالهموم والالام والاحزان ، الاحزان المكبلة المقيدة والقيد قيد حتى وان كان من حرير .

فالكاتب فى هذه القصة يبحث عن « الولوج فى قلب القلعة فى « الضمير » فى هذا الفراغ المتوتر الذى يجده كل انسان فى أعماق ذاته ، هذا المذاق التافه فى أعماق الحنجرة ، هذا الفيض الغامض من المشاعر والافكار ، هذه الكتلة من الذكريات التى لا جدوى فيها ، هذا الشقاء ، هذه الوحدة التى وصفها سارتر وصفا مشخصا فى رواية الغثيان » (10) . فالوحدة تبقى وحدة والاسر يبقى

---

(9) بن سلامة البشير : لوحات قصصية ص 10 .

(10) رينيه ماريل البيراس – تاريخ الرواية الحديثة ترجمة جورج سالم منشورات عويدات باريس – بيروت 1982 ط 2 ص 7 .

أسرا وان كان فى جنات عدن والقيد يبقى قيدا وحتى وان كان من حرير الدمقس هذا ما حير نفسية الكاتب الانسان الفنان النازعدوما الى التحرر والانعتاق ، التواق دوما الى اكتشاف ما يحيط به من الغاز ورموز ، الباحث دوما عن سر الطبيعة وكنه الكون عن سر الوجود ومصير الانسان ، عن جدوى الحياة وماهية العدم الفناء . كان عالم الكاتب فى هذه اللوحة القصة أو هذه القصة اللوحة القصيدة هو ذلك « العالم المهتاج ، هو عالم الفن التعبيرى أيضا ، عالم قاتم حيث لا تخضع فيه الدوافع الانسانية لمنطق العواطف ، بل لنوع من الغضب والعجز يكونان فى صميم الانسان » (II) . ذلك الانسان الذى يرى الوجود مصيبة وكارثة ولكنه يتشبث به ، ذلك الانسان الذى يعتقد أحيانا أنه وصل الى مرحلة الهتك والكشف والاكتشاف ولكن سرعان ما يرجع الى جاذبيته الارضية التى تأبى له الفرار من عالمها وتأبى بقاءه عليها ضمن أشيائها فبقى الانسان محاولا مدى حياته ، محاولا ايجاد حلول لمشاكله ليس الحياتية فقط وانما ما بعد الحياة أو ما فوق الحياة فظل معلقا بين الارض والسماء لا هذه تقبله ولا هذه ترفضه ممزقا بين حاضره وماضيه ومستقبله مؤرجحا بين ايمان العجائز وايمان الحلاج بين شك الغزالى وأبى حيان وبين ايمان أبى الطيب بنفسه وايمانه بالعمل الخلاق المعوض حيث يتكثف الماضى والمستقبل ويتمركزان فى حاضر مؤثر ، حاضر خلاق ، حاضر مبدع ، حاضر باحث ومنقب .

(يتبــع)
د. محمد عبــازه

(II) نفس المصـدر ص 297 .

ننشـر فى الاعـداد القادمـة

ملامح فى القصة القصيرة .... **رابـح لطفى جمعـه**
من المخطوطـات الموسيقيـة .... **د. محمود قطـاد**
الرابطـة القلميـة .... **د. عيسى الناعـورى**
معارضة بودلار (شعر) .... **محمد بن صابـر**
حذائى فى الماء .. ويحترق ! (شعر) **الصادق شـرف**

أغنية لعرس غيلان

شعر: عمر السعيدي

تكريما للأدب العربي في شخص الاستاذ محمود المسعدي الذي تحصل عن جدارة على جائزة المنظمة العربية للتربية والثقافة والعلوم .

واخيرا أتمَّ غيلان سدَّهْ رغم ليل العنا وحقق مجدَهْ
واستوى شامخا على قمة « السد » وقال التراب : جسِّم وعدَهْ
وغزا الفجر ليلنا واستفاق الحرف وانساب كابتسامات وردَهْ
وجفا النوم عين ميمونة النوم فألقت غطاءها والمخدَّهْ
فاذا الماء كالاسير الذي دمَّر اسْطُولَهُ واغْرَقَ جندَهْ
فهوى راكعا على قدمي غيلا ن مستعطفا يراود ودَّه
واذا الأرض بعد عقم مقيت مرمري الرؤى كأشباح ردَّه
أصبحت جنَّةً ودودا ولودا خيرها كالشعاع ما اسطعتُ عدَّه
واذا التيه هده جبل السد الذي دسه وواراه لحده
وترامت احلام غيلان كالسحر تزيد الوجود حسنا وجدَّه
ورأينا أبا هريرةَ يشدو بحديث النسيان يكشف بُعده
فارقصي يا حروف للفتة الكبرى ، فحظ الاديب اخرج زنده
انه العيد فامرحي يا قوافٍ لا تخافي .. فتوأم العيد بعده

مُفاجأة غير سارة ..

قصة : الحبيب بن فضيله

(1)

وجهك ما زال يلاحقني .. أنا الهارب منك إليك .. أحس أحيانا بحب جارف يشدني إليك ، وأحيانا أجد لذة قصوى حين لا أفكر فيك وأرحل في عوالم أخرى وأنا أتسكع في المدينة .. رائعة هذه المدينة بضجيجها وضبابها .. بروائحها النتنة والعطرة .. بمغازاتها الضيقة والواسعة ، النظيفة والقذرة .. بمقاهيها وحاناتها .. بنسائها الشريفات ونسائها العابثات ... أحس بالرعشة تدب في مفاصلي حين يطالعني وجهك من خلال بلّور واجهات المغازات وتتخلل جسمي حرارة غير معهودة ...

(2)

يد ناعمة تمتد إلى الورقة الملقاة أمامه وهو يرسم عليها بعض خواطره كما اعتاد ذلك دائما . معصم أبيض كالبلور ظل ممددا على الطاولة .. كانت المقهى شبه خالية من الزبائن .. ماسح أحذية يتجول بين الطاولات مزهوا ويده في جيبه تلعب بجملة محاصيل ذلك اليوم ...

رفع « يوسف » رأسه ليتفرس وجه صاحبة المعصم البلّور فإذا بتلك الرعشة الخفية تدب في مفاصله .. تخلخله .. وأحس بالحمرة تكسو وجهه وبالحرارة تنبعث من أذنيه .. شهق في صمت .. إنها هي .. هاربة مني إليّ ...

انفرجت شفتاها عن ابتسامة طالما احببتها ... وتمنيت في ذلك الوقت لو أنها ارتمت في عنقي تقبلني كعادتها .. طعم خاص لقبلاتها ما ذقته أبدا عند غيرها ممن عرفتهنّ من نساء .. حديثها سلسبيل وصمتها عالم من السحر والتفتين ..

ظلت تنظر إليّ صامتة .. ولكني قرأت في عينيها آيات بينات مما تيسّر من سورة الدهشة وأحاديث أخرى حالمة جداً ...

(3)

أقبل النادل في هَذَرِهِ . سأل خديجة عمّ تريد تناوله وابتسامة تيه تعلو محياه .

– باتي ...

– عفوا .. غير موجود !

– أحب عصير برتقال إذنْ ..

– حاضر .. دقيقة واحدة فقط ...

وذهب مسرعا فبدا عرج رجله اليُسْرَى واضحا هذه المرة .. نظر « يوسف » إلى مجالسته ودون أن ينطق أفرغ ما تبقى من حثالة القهوة في جوفه ثم أشعل سجارة وراح ينفث الدخان كالقطار ...

(4)

اشتعلت أضواء الشوارع ، ولمع بريق الواجهات وخديجة تتأبط ذراع « يوسف » وتحادثه في عتاب وهو بين الإغفاءة واليقظة ...

ولمّا افترقا كانا كمن وُلِدَ من جديد ...

(5)

في بيته قرأ يوسف « البرقية » وانهار على الأريكة .. بخطّها المعوّج كتبتْ :

(غَدا يَوْمُ زَفَافِي عَلَى صَدِيقِكَ الهَادِي ...)

الحبيب بن فضيلة

المخاض ..

شعر : عبد الله البلطي

أضاعَ الجنين رفوف التجلّي . (*) وقد شرّدته الظنون ،
وكانت خطوبُ الهجير تلوّحُ عسرَ الولادة ،
ليبني الشقيُّ ، رصيفَ القوافي ،
ويمتصّ من كل أرضٍ رضابا ،
وباسم السلام يحاكي البلابل ،
ويعشق ذاتَ السنين التي قد تمرّ ،
بقبلة نخلٍ تدلّى فتونا لرقص السنابل .
ويعشق ذاتَ السنين التي لا تمرّ ،
وكم من سنين ، وهذا الجنين الذي قد نظرنا ،
تتوقُ إليه الأمومة !
كإبحار كحلٍ بعينيْ صبيّة .
وكم من سنين ، وهذا الجنين الذي قد نظرنا ،
يظلّ نحيلا ، بحبر الأماني !
ويعلق ركضُ المحال بخدّه .
فزيدي اشتعالا أيا لعنة الرّب زيدي ..
لحدّ النخاع ، وأوراق غدر السنين ،
ليبدو الجنين ،
ليبدو الوطن .

(*) **المخاض** : قصيد من مجموعة شعرية تصدر قريبا جدا عن « الأخلاء » عنوانها : « **رؤى واصابع** » .

مزالي وعبقرية الشخصية العربية

بقلم: د. محمد عبد المنعم خفاجي
(مصر)

- 2 - (*)

بيد انه ، ولا غنى لنا عن التكرار ، لا يمكن القيام بأي عمل جدى أذا ما استمرت ، ولو بشكل محتشم متستر ، الهيمنة الثقافية او حتى نية الهيمنة الثقافية . ولا نجاة لنا بدون اعتراف متبادل بفوارقنا الثقافية .

وخوفا من الظهور بمظهر من يمنع الصداقة من ان تتمتن اذ لا صداقة صحيحة دائمة الا برسوخها وانطلاقها من ارادة الجماهير الشعبية ، فانى لا أتردد مؤكدا بأن المصاعب ما تزال ماثلة مع الاسف ومعرقلة لقيام الحوار الغربى الشرقى . وان جهلا بين الغرب والشرق ما يزال موجودا لاسباب تاريخية يدركها الجامعيون وكبار المثقفين حق الادراك ، فهناك التباسات خطيرة لم تتم ازالتها بعد ، بحيث يبدو الحوار الذى يتشدق به بعضهم سطحيا ، إن « البترودولارات » تدفع كثيرا نحو الحوار فى بعض العواصم . ولكن الوجدان منعدم فى كل ذلك والنية ليست لوجه الله دائما ..

ان العديد من « المهذبين » الذين يتنافسون فى الافصاح عن تفهم - جاء متأخرا !.. - للعروبة والاسلام ، قصد استرجاع بكارتهم التاريخية يثيرون الحذر قبل اى شيء آخر ، وحتى ذوو العزائم الطيبة ، أعنى المسؤولين السياسيين أو الثقافيين الصادقين يقف امامهم هذا « الحجاب ! التاريخى وهذا التكييف الثقافى اللذان صنعتهما القرون العديدة وراحا يفسدان تصور كل طرف للطرف الآخر . ان الاحكام المسبقة تحول دون الحكم الصحيح .

فلقد مضى عدد من المستشرقين والمؤرخين والموسوعين منذ قرون يصورون العرب والمسلمين فى صورة مشوهة ويعطون عنهم فكرة مبتورة مجحفة فأثروا بذلك فى كثير من الاجيال فى الغرب ، وجعلوا هذا الاحتقار مشروعا وأباحوا الاستعمار وحروب « التهدئة » وبرروا الاعمال التى اضطلع بها المبشرون

(*) انظر الفكر العدد 3 - السنة 31 - ديسمبر 1985 .

والمأجورون والمعمرون من أجل « اسعاد » الاهالى رغما عنهم ، ذلك ان صلف اليقين بتفوق الرجل الابيض مريح للضمير » . .

وأكـد : ان مهمتنا التربوية وان نضالنا من اجل ثقافة انسانية الاتجاه وان عملنا من اجل اقرار الصداقة والسلام بين البشر لا تبلغ الهدف ما لم نتفق جميعا فى تحليل الاحداث والاحكام المسبقة والاوليات التى تميـز العلاقـات الحالية بين الشرق والغرب وما لم تكن لنا العزيمة الراسخة لتغيير الوضع باجتثاث اسبابه العميقة ، ومن جملة الاعمال الواجب القيام بها اضع فى المقام الاول مراجعة برامج التعليم ليس فى العالم الثالث فقط بل وبالخصوص فى الاقطار الغربية ، وخاصة برامج التاريخ الذى يتعين اعـادة كتـابته وينبغى أيضا مراجعة الموسوعات وازالة ما فيها من طعوم العنصرية والجهل وهذا عمل عظيم يتطلب طول النفس مـن أجـل إرساء صداقـة دائمة بيـن البشر عـلى قواعد قوية . .

وهناك أيضا خطر أود الاشارة اليه وهو يتراءى لى من خلال عدد من الفصول يكتبها مثقفون واكفاء يعترفون اليوم بضرورة فتح حوار بين الشمال والجنوب ويؤمنون فى صدق بتكامل الثقافات ولكن خضـوعهم لضـرب من التاريـخ وتكيفهم به جعلاهم يتصورون انه لا بد لهم أن ينسبوا الى كل حضارة سمـة واختصاصا مميزا . وهكذا يميز « هنرى دى لا باستيد » اربع حضارات عالية كبرى ، وأشد من ذلك سوءا انه يعين لكل منها قيمة خاصة : الفكر لاروبا ، والكلمة للعالم العربى ، والرمز للصين واليابان ، والايقاع لافريقيا (انظر جريدة « لوموند » ـ 7 نوفمبر 1975) ، الا ان كل هذا مغاير للحقيقة وخطير.

فالناس متساوون ولهـم نفس القـدرة على اكتسـاب نفس القيـم وعـلى الانصهار فيها .

ان الشعر والموسيقى والفلسفة والعلم ليست وقفا على شعب دون آخر والتاريخ هو الذى يكيف الناس ويشرح التأخر الفنى او العلمى لدى هـذا الشعب أو ذاك . فالتأكيد بأن الفكر من خصائص الاوربيين وان الافارقة ليسوا موهوبين الا فى « التـام تـام TAM TAM » مجحف صادم ، وهذا الاوربى « موريس بيجار » الخبير فى الايقاع والعارف ... للحكاية ، قد أتى بتكذيب دامغ لهذه التأكيدات التى لا تستند الى اصل .

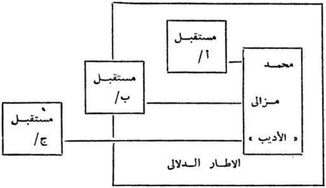
يقول بيجار : « ليس الطفل الغربى بأقـل استعـدادا للرقص مـن طفـل افريقى أو هندى . ليس ثمة مواهب عرقية ، يقال مثلا : « ان الايقـاع يجرى فى دم الزنوج » . انها للحماقة الكبرى ، فالايقاع ثقافة تكتسب ، ولقد قمت

بتجربة فى هذا المجال خلال تربص مع جماعة من الهواة من بين الذكور والاناث من مختلف الحرف ولم يمارسوا الرقص بتاتا . وكان من بينهم زنجي من الكنغو ولكنه ولد فى بلجيكا وتلقى تربيته كبلجيكي متوسط ، ولقد ابدى هذا الزنجى خلوا من الايقاع لا يصدق ، اذ كان أقل المشاركين استعدادا للرقص مما أثار استغراب الجميع : ماذا جرى ؟ هل هو مصاب بعاهة ؟ لم لا يرقص كبقية الزنوج ؟

وانها لفكرة عنصرية التى تذهب الى الاعتقاد والقول بان الزنوج يمتازون بكذا والبيض بكذا ... هذا غير صحيح . وأنا مقتنع وأعلم جيد العلم بأن الاجناس كلها متساوية وليس هناك الا فوارق ثقافية . فالزنجى الذى يعيش فى وسط زنجى يسمع فور ميلاده « التام تام » وحين يبلغ الرابعة أو الخامسة من العمر يجرى الايقاع فى عروقه أما اذا سمع موسيقى اذاعة بلجيكا فانه يشبه عندما يكون فى الخامسة أى طفل بلجيكى . وبنفس الطريقة اذا تربى طفل أبيض فى اطار ايقاعى فان الايقاع يصبح جزءا من كيانه .

ان الاستعمار والعنصرية والامبريالية والايديلوجية ، بالخصوص ، ليست غريبة عن استلاب الشعوب التى تنعت بالمتخلفة وعن تجمد مثقفيها ، لكن الرجال هم الذين يصنعون التاريخ وهم الذين يحررون فى آخر الامر أنفسهم ويحررون طاقات الخلق والابداع فيهم » .

وفى التفسير الاعلامى للادب نؤكد على أهمية دراسة العناصر النفسية فى الادراك والتذكر ، ذلك ان الانسان ينتقى المدركات ، ويختار ما يتعرض له من اعلام ويتذكر ما يريد ان يتذكره ، وفقا للعوامل النفسية ، والاستعدادات والاتجاهات والقيم . كما يلاحظون اثر الجماعة فى تكوين اطار التأثر من خلال النظام السياسى والاقتصادى والثقافى للجماعة . فالاستجابات التى تحدث نتيجة لمثير معين ، فى موقف اتصالى معين ، لا تحدث بطريقة آلية أو كيميائية ، كتأثير الضوء على السطح الحساس مثلا ، وانما تعتمد على محصلة العوامل الشخصية والقوى الثقافية التى يمثلها كل شخص فى الموقف . فكلما كان الاديب والملتقى يتفاهمان فى اطار دلالى واحد ، كان ذلك أقرب ما يكون الى احداث الاثر . ويعبر عن ذلك على النحو التالى :



فالمستقبل (أ/) يقع داخل الاطار الدلالى للمرسل ، فهو يفهم كل شيء ، والمستقبل (ب/) كاد ان يقع داخل الاطار الدلالى ، فهو يفهم اشياء ولكنه لا يفهم أشياء اخرى ، أما المستقبل (ج/) فانه لا يفهم شيئا مما يقوله المرسل ، لانه يقع خارج اطاره الدلالى تماما .

فاذا أخذنا الموقف الاتصالى الذى حاول فيه محمد مزالى كمصدر للاتصال ان يؤثر فى المستقبل (ب/) لاقناعه بالموضوع (ج/) فاننا نجد ان هذا الموقف ليس بسيطا كما يبدو . ويوضح لنا « كارترايب » و « هرارى » فى نظريتهما عن « الاتزان البنائى » (7) انه يقنع المرسل (أ/) المستقبل (ب/) بوجهة النظر (ج/) ، يجب ان تكون هناك علاقة متبادله بين (أ) و (ب) ، ومن المحتمل بالطبع ان تكون العلاقة بين (ب) و (ج) علاقة موجبة أو سالبة .

وسنتخذ كتاباته فى مجلة « الفكر » مثالا فى هذا التحليل ، فالاستاذ مزالى الكاتب (أ) يتوجه الى الانسان التونسى والعربى بعامة (ب) كمستقبل مستهدف مؤملا ان يتواصل الحوار مع المثقفين (حول شؤون هذه البلاد المصيرية وحول آفاق الفكر فى تونس ، ومستقبل الثقافة والادب والعلاقة

(7) المرجع السابق ، ص 167 .
Cartinright D., 9 Harry, F Structural Balance : A generlisation of Heiders Theory» Psychological Review, 1966, 277-93

الجدلية التي يجب ان تساهم في تمتين صلة الرحم بين الاجيال ، على أساس التقدير الفكرى المتبادل (أولا) أن تشدها جميعا (ثانيا) الى انوطن المتطور المتجدد ، باعتباره العروة الوثقى التى هى سر اصالة الامم ، والاطار الطبيعي الضرورى الذى من دونه يكون الانتاج الفكرى ضائعا « تلك هي » وجهة النظر (ج) التي يستهدف الكاتب « المرسل » توصيلها الى « المستقبل » ، بهدف الاتفاق على الاختيارات المصيرية مع ذوى « العقول النيرة والثقافة المتينة والوطنية الصادقة » وفى ضوء هذا الفهم الاتصالى الفكرى يواصل الحوار حول جملة من القضايا الادبية الاخرى التى هى « بمثابة الفرع من الاصل » ، ويتم الاتصال بلغة واحدة حول الالتزام والحرية وحقيقة الشعر وانواعه ورسالة القصة ومضامينها ، ودور المسرح واتجاهاته المختلفة ، وأهمية النقد وبعيد اثره فى النهضة الادبية ، ومنزلة الكاتب ووظيفة المثقف ، وعلاقة التعليم والتربية بمستقبل الثقافة ، والجدل فى اللغة .

وتشير النتائج الاعلامية التى وصل اليها الباحثون فى جامعة يـل YALE الى ان أهم مكونات تصديق المصدر تتلخص فى ثلاثة اشياء هى : النية ، والخبرة ، والثقة . وهى الصفات التى يتمتع بها مزالى فى ابداعه الادبى بعامة..

وفى تقديرنا ان « **حديث الفعل** » يمثل الصدق فى القول والاخلاص فى العمل .. السمات الأساسية لشخصية مزالى ، والكتاب الذى يحمل هذا العنوان « **حديث الفعل** » صدر عن مؤسسة نشريات الجنوب ببلجيكا وباللغة الفرنسية ضمن سلسلة « المسالك » وهو كتاب من الحجم المتوسط به 281 صفحة وقد جاء على صيغة حوار اجرته السيدة ثزافيار ايلوس مع سيادة الوزير الاول :

وقد تركز الحوار على الابواب التالية :

1) بذور الامل .
2) مرآة سقراط .
3) الاعمال والايام .
4) الهامات أولمب .
5) عيون ارفوس .
6) اسوار المدينة .
7) بذور العقل .
... الخ ...

ففي الفصل الاول كان الحوار مرتبطا بطفولة الاستاذ ومسلكه الاولى مع الكلمة ومع الفعل وتدريجيا اتبع المسار الحوارى منهج السيرة الذاتية المطعمة بالنظرة الحاصفة والصادقة فالاستاذ محمد مزالى درس وتعلم وانتهج المذهب البورقيبى منذ الصغر فجاء فى شخصيته ورؤيته للحياة والكون مثالا للاديب الملتزم بخط واضح وجلى هو أساس مثل المجاهد الاكبر الذى كرس حياته لتونس وازدهارها . وقد اتبع الاستاذ محمد مزالى المقولة المشهورة والتى نجدها فى جريدة « العمل » التى أسسها صاحب الفضل على تونسنا اليوم فخامة الرئيس الحبيب بورقيبة هذه المقولة هى : الصدق فى القول والاخلاص فى العمل ..

وقد أكد الاستاذ محمد مزالى على هذه المقولة واعطاها مفهومها من خلال تجربته الحياتية والنضالبة .

ان كتاب « حديث الفعل » هو خلاصة تجربة وسيرة ذاتية لا تقتصر على حياة الاستاذ المفكر محمد مزالى وحده وانما هى مسيرة تونس بقيادة المجاهد الاكبر وقد جاء هذا الكتاب فى صيغة حوارية ذكية عايشنا خلالها فترات حياتية للمفكر التونسى محمد مزالى وللاديب العبقرى صاحب مجلة « الفكر » الغراء وكذلك عشنا الاحداث الكبرى التى عرفتها بلادنا منذ انبعاث الحركة الوطنية على يد الشاب المحامى الحبيب بورقيبة (8) .

ولقد كتب الاستاذ أحمد القديدى مدير جريدة « العمل » عن هذا الكتاب يقـول :

« ضمن سلسلة خاصة بكبار المناضلين والساسة والمفكرين اصدرت دار بوبليسود للنشر كتابا للاستاذ محمد مزالى اخذت فصوله واحداثه من فم هذه الشخصية السياسية والفكرية والرياضية الذائعة الصيت بواسطة قلم الصحفية الفرنسية ڤزافيار أوليس مديرة هـذه السلسلة مـن الكتب وقـد كتبت للكتاب مقدمة أبرزت فيها أهمية هذا الكتاب الموازية لاهمية تونس بين بلدان الجنوب بفضل سمعة رئيسها وبانيها المجاهد الاكبر الحبيب بورقيبة ونضاله الطويل من أجل حوار الثقافات وكذلك بفضل عبقرية هذا الشعب ومجده واضافاته المشرفة للحضارة البشرية .

---

(8) جريدة « الأمـة » 24 مارس 1984 .

وقد عزت الكاتبة تميز شخصية محمد مزالى الى كونه أيضا من أبـرز من تحملوا المسؤوليات العديدة فى النظام البورقيبى فى كنف الانضبـاط لرئيس الدولة وتوجيهاته ، حيث كان مسؤولا عن التـربية والشبـاب والريـاضة ومؤسسات اعلامية والدفاع الوطنى والصحة ، وقد انبثق من صلب أسرة تونسية متواضعة كما ان احدى خصائص هذه الشخصية هى كون الرجل مفكرا وكاتبا اصيلا ومثقفا رائدا حرص مدة 29 سنـة على اصـدار مجلتـه « الفكر » بمثابرة عجيبة على انتهاج خطها المخلص للذاتية العربية الاسلامية المنـاضلة .

وتلح محاورة الاستاذ مزالى على أن الرجل متفتح مؤمن بحرية الرأى محترم للفكر المختلف الى جانب إحساسه العميق بالمسؤوليـة وتحمله لامانـة الوزارة الاولى فى بلد ذى موقف حساس جغرافيا وسياسيا وحضاريا .

وتنطلق بعد ذلك فصول الكتاب عـلى لسان الاستاذ مزالى بعفويـة تشبـه الحديث النابع عن الفعل . ومن هنا كان العنوان الـذى اختاره الاستاذ مـزالى لكتابه فالحديث لديه ينبع من الارادة التى تدفع للعمل ، وفى الحقيقـة اى مثل اسمى من مثل هذا المناضل الكبير ليقرن الحديث بالانجـاز ويتبـع ارادتـه بالعمـل .

ومن هنا جاء الفصل الاول لرسم ملامح طفولة هذا الرجل ضمـن عـائلة فقيرة حينما بدأت عيناه تتطلعان الى الافق لاستقراء المستقبل ، فالزيتونات القليلة التى يمتلكها الاب هى كل ثروة العائلة وكان الطفل يرنو بعيدا كانما يسائل التاريخ واتساع البحر وامتداد غابات الزيتون وقد نشـأ فى ظـلال الرباط وقريبا من سيدى المازرى وعلى الاناشيد الصوفيه .

ثم انتقل وراء أبيه من المنستير الى رادس الى سبيطلة الى منزل حرب وتعلم من أبيه ان تونس هبة المطر فاحب هذه الارض وأحس بالتحامه بها ، وبالناس الطيبين الفقراء الذين اختلط بهم وسهر معهم على دفء الكانون وجمع معهـم الزيتون أو تردد معهم الى المدرسة .

واستيقظ الفتى فى هذا المحيط على الاحساس ببؤس أبناء جلـدته وعلى صوت الزعيم الشاب الحبيب بورقيبة العائد من فرنسا يحرك السواكن ، حيث شاهده الطفل محمد مزالى فى جويلية 1933 حينما زار المنستير بمناسبة حفل

ختان ابنه الحبيب ، ويقول الاستاذ مزالى عن تلك الذكرى :: « ان الزعيم يريد دائما أن يضفى على هذه الطقوس الاسلامية معناها الوطنى المعادى للاستعمار ... » ويمضى صاحب الكتاب ليقص علينا المرحلة الثانوية من تعلمه حيث انتقل والده للعمل فى المدرسة التابعة للجمعية الخيرية التى تكفلت بالفتى الموهوب وتعهدته ، ويروى لنا عناصر تكوينه الثقافى والرياضى والفكرى والسياسى فى هذه المرحلة الثرية بالاحداث الى ان انتقل الشاب الى فرنسا فى أكتوبر 1947 ليبين للقارىء بصمات هذه المرحلة الهامة تحت عنوان « مرايا سقراط » لنستعيد مع الشاب الطالب ذكرياته فى دراسته الفلسفة وتحصله على ملكة الاستنتاج واطلاعه على ضروب أجنبية من السلوك والثقافة والتطلع عمقت تجربته الوطنية واذكت شعلته النضالية وعلمته المنطق الذى لخصه الاستاذ مزالى فى ص 43 من الكتاب بقوله : « ان منطق الفكر اذا لم يكن احد معطيات التجربة ، فهو حتما مطلب من مطالب الفكر : فهو الوضوح والدقة والاشراق ... » .

« الوضوح والدقة والاشراق » هذه هى الكلمات المفاتيح لفهم حياة ونضال الاستاذ محمد مزالى عبر مسيرته المضنية من أجل تحقيق مثل أعلى فى الحياة ، تتالت فصول الكتاب العشرة لبيانه وتوضيحه وتقديمه والدفاع عنه . نعم انه الجهاد الحق من أجل مثل أعلى . يكاد القارىء يلمسه بالحس والحدس والفكر من خلال كل مراحل نضال الرجل فى الميادين السياسية والثقافية والتربوية والرياضية ، حيث لم يبدل تبديلا ، وظل هو نفسه الرجل المخلص لمبادىء بورقيبة . المتخرج من مدرسة الحزب ، الماسك بدفة الوزارة الاولى والامانة العامة للحزب باعتزاز من يؤدى واجبه فى سبيل الوطن ، فى سبيل عزة الوطن واعلاء كلمته وعلاه واستقلاله وخير شعبه .

وكتاب « حديث الفعل » (9) للاستاذ محمد مزالى تناولت مضامينه بالنقل والتحليل .. معتبرة اياه ظاهرة أدبية وسياسية بارزة ومثيرة فهو تأليف لم يقرأ عنوانه ، بل قرىء أولا من اسم واضعه ، وان كان العنوان والمضمون يستحقان مثل هذه العناية أيضا .

كل وسائل الاعلام استندت فى تغطيتها للحدث الى جملة من المعطيات نلخصها على النحو التالى :

---

(9) « الفكر » يونيو 1984 ــ مصطفى عطية .

* المؤلف مفكر له وزنه فى زمن قل فيه عمالقة الابداع ..
* وهو سياسى محنك ... يعتبر سندا قويا ومصدرا موثوقا به ..
* أفكاره تسبح فى فلك الانسانية المطلقة ..
* مواقفه الوطنية والانتمائية والحضارية ، واضحة وقوية وجريئة ..
* تاريخه الشخصى مرتبط جدليا بتاريخ الزعيم الحبيب بورقيبه وبالتالى بتاريخ تونس الحديثة ..
* مساهمته الفعالة فى تأكيد المسار الديمقراطى بتونس ..
* تدربه التدريجى الثابت فى تحمل المسؤوليات ..
* ظهور الكاتب فى فترة دقيقة من تاريخ تونس والعالم ..

كل هذه العوامل كانت وراء اهتمام بلاطات صاحبة الجلالة « بحديث الفعل » ، منها من فاز بسَبق نشر فصول مطولة منه (10) ... ومنها من استعرض باسلوب صحفى أهم ما ورد فيه ... ومنها ايضا من تناول الكتاب بالتقييم والتحليل ..

وفيما يخص اسباب اصدار الكتاب يفسرها « بول بالتا » بجريدة « لوموند » (11) بقوله : « اختارت « كزافيار أوليس » اجراء حديث مع السيد محمد مزالى . فكان الاختيار موفقا .. لان محمد مزالى سبق له ان احتل مناصب عدة قبل ان يصبح وزيرا أول ... ثم بالرغم من اعباء المسؤولية فقد بقى رجل ثقافة » .

ومحمد مزالى مناضل عاش أدق فترات تاريخ تونس المعاصر ... وساهم بفعالية فى تطبيق بنود خطة الجهاد البورقيبى ... كتب عزيز محجوب بمجلة « جون افريك » (12) شهادة مثيرة « ... يبقى محمد مزالى فى نظر تلاميذه القدامى بالصادقية ، استاذ الفلسفة ، ذلك الذى ساعدنا على اكتشاف هويتنا القومية وانتمائنا الى الثقافة العربية الاسلامية ، والى هذه الامة التى يرزح

---

(10) لوبوان الفرنسية 1984/3/19 .
ديالوغ التونسية 1984/3/19 .
لابراس التونسية (نشرت الكتاب على حلقات) .
(11) لوموند 1984/3/20 .
(12) جون افريك 1984/3/28 .

معظمها تحت نير الاستعمار » ، ويضيف : « كنا سعداء برؤيته قادما الى الصادقية كل يوم اثنين على متن سيارته السيمكا البرتقالية القديمة ، المكدودة قليلا نتيجة قطعها كل يوم احد المسالك الحجرية ، حاملة الاخبار السيارة لهذه الشعبة الحزبية الضائعة وسط الريف ، أو تلك المنظمة النقابية » .. ويؤكد ـ د ـ ل ـ بجريدة « لى كوتيديان دى بارى » (13) هذه الحقيقة فيقول : « يندمج الجهاد من أجل الاستقلال عند (مزالى) الطالب ، ثم المدرس الشاب ، مع المعركة من أجل الهوية الثقافية ورد الاعتبار للثقافة العربية ولغتها المجيدة » .

ويبقى محمد مزالى مثال السياسى الحكيم الذى غرف من نبع البورقيبية حتى ارتوى ، والمساهم بجد واخلاص فى رسم ملامح تونس الحديثة ، تونس النظام والديمقراطية والخير والاستقرار ، كتب عزيز محجوب بمجلة « جون افريك » (14) : « يجب ان تسجل لمحمد مزالى مساهمته الفعالة فى صنع القرار التاريخى الذى اتخذه بورقيبة يوم 19 نوفمبر 1983 والقاضى بالبعث الشرعى لحزبين من المعارضة (حركة الديمقراطيين الاشتراكيين ، وحركة الوحدة الشعبية) ، اضافة الى الحزب الشيوعى المعترف به رسميا من قبل » .. وتعدد « آن موراتورى فيليب » من جهتها بجريدة « لى فيغارو » الفرنسية (15) الانجازات الكبرى التى عرفتها تونس وساهم فى ظهورها محمد مزالى : « على امتداد مناصبه الحكومية المتعددة ترتسم رؤية تونس الجديدة : تحرير المرأة ، السياسة الثقافية ، ظهور التلفزة ، معركة بنزرت ، تحديد الولادات ، الهجرة .

اما « جوزات عليا » فقد اكدت فى مقال نشرته مجلة « لى نوفال ابسرفاتور » (16) ان : « محمد مزالى قد فعل كل ما فى وسعه لتمرير الديمقراطية والتعددية تدريجيا فى تونس » وأضافت : « وان كانت تونس اليوم قد غدت أكثر البلدان حرية فى العالم الثالث (اعتبارا لوضعية المرأة ، والنقابات والاحزاب السياسية) فالفضل فى ذلك يعود لبورقيبة ولمزالى أيضا » ... وأشارت جريدة « فرانس سوار الفرنسية » (17) الى هذا الجانب

---

(13) لى كوتيديان دى بارى 1984/3/23 .
(14) جون افريك 1984/3/28 .
(15) لىفيغارو 17 ، 1984/3/18 .
(16) لى نوفال بسرفاتور 1984/3/23 .
(17) فرانس سوار 1984/4/3 .

الهام من شخصية محمد مزالي فكتبت تقول : « دوما ما تكون خلافة العمالقة محفوفة بالمخاطر ، لكن محمد مزالي خليفة الحبيب بورقيبة الوفي يمتاز الى جانب هيبته الدينية وثلاثين سنة من التجربة في خدمة الدولة ، بمؤهل حاسم » .

ومن خلال « حديث الفعل » برزت شخصية محمد مزالي الانسان المتوازن ، المحب للخير ، الصادق ، النزيه والجدى ، ورد بمجلة « كل العرب » الصادرة بباريس (18) : « الكتاب والمثقفون كانوا ينتظرونه في لقاء حي ومباشر فوجدوا فيه المحاور الواثق مما يقول لانه الواثق بما يفعل اصلا » ... كما ادرجت مجلة « ديالوغ » التونسية (19) عند تقديمها لفصول مطولة من « حديث الفعل » قولا جاء فيه بالخصوص : « شاهد عيان وعنصر ذو امتياز في احداث بلده وزمانه والعالم ، مفكر ورجل سياسة وكاتب ورجل عمل ، عميق التجذر في هويته القومية وانتمائه للمجال الثقافي العربي الاسلامي ، ولكنه متفتح بفضل مرسى المتوسط وافريقيا ... » .

وعند تقييمها لاسلوب كتاب « حديث الفعل » تعرضت وسائل الاعلام الى محمد مزالي المبدع ... فكتبت جريدة « فرانس سوار » (20) تقول : « يقرأ هذا التأليف دفعة واحدة ، كرواية معبرة وصادقة ، لا تخلو من تفكير وخفة روح ولهجة رقيقة » . اما « بول بالتا » فيقول بجريدة « لوموند » (21) : « هذا الكاتب التونسي الذى نشر ستة كتب باللغة العربية يقدم لنا هنا ، سيرة ذاتية مكتوبة بلغة فرنسية جميلة ، صافية ، متينة ، ومنتقاة ، ومتخلية عن الكليشيهات والرطانة التكنقراطية التى عادة ما يلجأ اليها رجال السياسة».. وعلقت جريدة « لا كسيون » (22) على الكتاب ، بقولها : « كتاب ثرى مثير ، وعلى طول صفحاته يأخذنا شعور قوى بالحقيقة والجمال والجلال » ... واكتفى م. حلمي في جريدة « الاعلان » (23) بقول عميق تعليقا على « حديث الفعل » : « روايةكتبت بجدية سياسي فيلسوف كبير » ..

---

(18) كل العرب 1984/3/28 .
(19) ديالوغ 1984/3/19 .
(20) فرانس سوار 1984/4/3 .
(21) لوموند 1984/3/20 .
(22) لاكسيون 1984/3/20 .
(23) الاعلان 1984/4/20 .

ولقد تعرفنا من خلال التفسير الاعلامي للادب على عنصر اساسى يتمثل فى « رجع الصدى » الى المرسل والاصداء التى تظهر نتيجة التأثر بالرسالة. وبذلك تشكل الاصداء الراجعة رسالة جديدة يستقبلها المرسل ، ومن ثم يتحول المرسل الى مستقبل للاستجابة على رسالته الاساسية ، ويتولى ادراك معانيها أو فك رموزها (24) ، وبذلك تكتمل الدورة الاتصالية فى التفسير الاعلامي للادب . . »

واذا كنا فى ثنايا هذا البحث قد تعرضنا من بعيد أو من قريب فى بعض الاحيان الى مدى التوافق بين مزالى ونقاد أدبه ، فان هناك أمرا ينبغى الاشارة إليه فى فصل الختام ، وهو ان استشهاده قد كشف عن « رجع الصدى » الحق لأدبه وحياته ومدى ثقة الجمهور فى محمد مزالى كمصدر للابداع الادبى ، وهذه الثقة – كما هو معلوم – هى الاساس الذى يبنى عليه « المستقبل » تصديقه أو عدم تصديقه للرسالة الابداعية او الاعلامية . وغنى عن البيان ان الثقة المطلقة ليست هى المعيار ، ولكن المعيار الحقيقى هو ما يتصوره المستقبل نفسه بصرف النظر عن الواقع . فمما لا شك فيه ان المرسل أو المصدر المباشر فى التفسير الاعلامي للادب يؤثر تأثيرا كبيرا على مدى تقبل الناس للرسالة الابداعية ومدى تصديقهم لها .

وبناء على هذا الفهم فان « رجع الصدى » Feed Back يصبح من أهم عناصر عملية التفسير الاعلامي للادب ، وذلك على الرغم من ان رجع الصدى هذا قد يصل ، وقد لا يصل الى انتباه مرسل الرسالة الاصلية ، واذا وصلت هذه الأرجاع ، وفسرها المرسل تفسيرا صحيحا ، فان الدورة الاتصالية تكتمل ، وتتكرر هذه الدورة بطبيعة الحال – الى ما لا نهاية ، وهذه التفاعلات الاجتماعية ، هى نسيج البناء الاجتماعى والثقافى نفسه .

د. محمد عبد المنعم خفاجى

---

(24) Berelson, B. Communication and Public opinion (ed.)
Schramm, W., Communication in Modern Soccetu, N.Y. P. 1118.

د. عبد العزيز شرف : فن التحرير الاعلامي ، القاهرة ، هيئة الكتاب .

(25) د. ابراهيم امام : الاعلام والاتصال بالجماهير ، ص 144 .

تونس البيضاء يا أم أبي القاسم

شعر : لميعه عباس

عقمتْ دهرًا صحاريها ، وحنت ...
عطشتْ دهرًا شواطيها ، تَمنت ...
قطّرتْ زيتونها كلَّ البساتين ،
وَصَلّتْ
كبّرت كلَّ المنائرْ
فاستجاب الله في عليائه
وانطلق الفجر من المغرب بُشرى
أنجبتْ تونس شاعرْ .
غُصنٌ أثقلهُ الوعدُ ، تدلىّ
قمرٌ هالته المجدُ ، تجلىّ
أيُّها العجلانُ ...
هل ينفع لو ناديتُ مهلا ؟
يا أبا القاسم
هل مُتَّ ...
وفي كل مكان أنتَ حاضر ؟
نَشَأَتْ محنيةً
زنبقة الراعي النضيره
مثلَ قلب الشاعر المضنى
وما أوجع أن يعرف إنسانٌ مصيره .

أفرغتْ قارورة المسك شذاهـا ؟
أم تُراها ؟
لو حباها القدرُ القاسي أنانا
أذهلت كل البصائرْ . ؟
لِمَ قلبُ الشاعرِ المعصوب بالأشواك
نُذرا ؟
سَقَمَـا يختارُ
أو يختار فقـرًا ؟
ليس إلاّ ؟
من سوى الشاعر بالنعمة أحرى
أفمن يُلبس هذا الكون سحرًا
يتعرى ؟
زادهُ زادُ المسافرْ ؛
تونس البيضاء
يا زرق الشبابيكِ
وأنفاس البخورْ
أنتِ يا سيدةِ البحر الربيعية
يا أختا لصيدون وصورْ
أنتِ يا أمَّ أبي القاسمِ

والشابي يكفيك فخارا
فيك أحبابي
ولا أرى ضيوفا أم أسارى ؟
خيمة تسكنها الوحشة قلبي
وهمومي لا تهاجرْ .
ظلّ أحبابي يغنّون ...
وغنّيتُ : « إذا الشعبُ .. »

وظلّ الشعب همّي
أبطأتْ « لا بدّ أن ... »
أسرع في خاصرتي سيف ابن عمي
قلتُ : بل « خلوا نبالي للعدا ... »
أهدرَ همّي .
في فمي حبرٌ
من الحكمة أن تطوى الدفاترْ .

لميعه عباس عماره

(بغداد)

مجلة "الفكر" : الوسيلة هي الرسالة

بقلم : د. عبد العزيز شرف
(مصر)

- 2 - (*)

ومن دراسة مقالات الاستاذ محمد مزالي والاستاذ البشير بن سلامة رئيس تحرير الفكر ؛ وما تضمنته خلال الثلاثين عاما الماضية ؛ يبين لنا ان هناك نوعين من التطور الفنى فى «عصر الفكر» ان جاز التعبير ، تطور ناتج عن تطور المجتمع التونسى الذى تعبر عنه هذه المجلة ، ثم تطور الفكر العربى وتحديد مفاهيمه الفكرية المعاصرة فى اطار من مفهوم «الوحدة فى التنوع» . وأوثر أن أقدم هنا ما كتبه الاستاذ البشير بن سلامة فى تقديم « **من وحى الفكر** » للاستاذ محمد مزالى .. يقول :

«بعد أربعة عشر عاما بالضبط يقرر صاحب الفكر باقتراح من أسرة المجلة أن يجمع الافتتاحيات فى كتاب وأن يقدمها للقراء كلا متكاملا ووحدة متماسكة» .

ومنذ أربعة عشر عاما ، وفى مثل هذه الفترة من سنة 1955 ، يقدم الاستاذ محمد مزالى على اصدار مجلة اسماها الفكر .

وفى ذلك الظرف بالذات كان الشعب التونسى يجتاز التحول الذى سيكون له أثر عظيم فى مستقبل ايامه ويطوى بذلك فترة من سلسلة فترات تعاقبت فيها أحداث واحداث ، كان فى الآخر انتصاره الحازم وانطلاقه بفعل رجاله الواعين المفكرين العاملين نحو صنع حاضره وصهر كيانه ، منغمسا فى تيار التاريخ ، ماسكا بزمام اموره .

فى هذه الفترة البطولية ساهمت «الفكر» ولم تواكب فحسب فى «عقل» اهم الاحداث وتسليط اضواء الفكر عليها ، واسهمت فى خلق جيل من الباحثين

(*) انظر « الفكر » ع : 3 - س 31 - ديسمبر 1985 .

والقصاصين والشعراء المبدعين اختلفت مشاربهم وتنوعت اساليبهم جدة وتقليدا ٠

فكما ان مجلة «العالم الادبى» عمرت بجيل من الادباء وأصحاب القلم بضع سنوات بعد الحرب العالمية الاولى ، وفتحت مجلة المباحث للنخبة التونسية بعد الحرب العالمية الثانية على صعيد الادب ، لا السياسة ، باب وعى التاريخ ووعى انفسهم فان مجلة «الفكر» مكنت كذلك الاجيال الصاعدة فى سنوات ما بعد الاستقلال من المساهمة فى صنع تونس الجديدة خلقا وابداعا ٠

وليس التذكير بالعالم الادبى والمباحث من باب الصدفة بل لان ذكرهما يفرض نفسه عند الحديث فى شأن مجلة «الفكر» ، ذلك ان ظروف صدورهما كانت تحتم عليهما اتجاها معينا ومنهاجا مضبوطا ، هما الى مناوأة السلطة الاستعمارية بصريح العبارة او مسترسلها ألصق ، وهذا مما كان يجعل الطريق واضحة ، وان لم تكن هينة ، أمام رجل الفكر الحر ، الذى اختار ان يكون على هامش الاحداث المصطنعة المنسوجة من الايدى الاستعمارية ، فكان وهو الذى صرف صرفا عن الفعل البناء منساقا الى فكره ينحت منه نير الافكار ، ومدفوعا على شعبه يستمد منه أصيل الصبر ، من دون ان يجد فسحة الى صهره وتجسيم ارائه فيه ٠

غير ان الظرف الذى انبثقت فيه مجلة «الفكر» للوجود هو من الظروف التى لم تعرفها تونس ولم تشهدها مجلة من المجلات فى سالف تاريخنا اذ ان رجال الفكر بأتم معنى الكلمة ، المخلصين لمجتمعهم المؤمنين بالفعل فى اسمى مدلوله مدعوون الى ان يسهموا بما اوتوا من قوة فى ترقية وطنهم ومحاولة التوفيق بين صادق القول وخالص العمل ٠

وان مجلة ثقافية تعتمد أساسا ما ينتجه الفكر الحق فى حر نوازعه ، ومجرد مناحيه ، ومجتمع خياله ، هى مدعوة ، مبدئيا ، الى ان تبتعد عن الواقع وان تحلق الى ابعد منه وان تنكره احيانا وتصرف فى تشريحه الى حدود الخيال احيانا اخرى شأنها شأن الكثير من المجلات التى اختارت ان تكون الى ما شاء الله على الضفة الاخرى من المجتمع .

ولكن مجلة الفكر باختيار من مؤسسها آثرت ان تخوض اخطر المسالك ، وان تغامر فى اعظم ملحمة اقتحمها الانسان وهى ايجاد توازن بين ما يتوق اليه الفكر من تجريد وبين ما يفرضه الواقع من ملابسات ، بين بناء فكرى يكتفى بذاته ويحاول الانسياق الى القواعد التى سنها وبين الانغماس فى صلب

المشاغل اليومية ، بين نشدان الحرية والتوق اليها والعزوف عن زائف الاعراض وبين الارتباط اشد الارتباط بجوهر الحياة وخصب الوجود .

هذه السبيل الشائكة الوعرة ، اختارها الاستاذ محمد مزالي وطبق مبادئها في ادارته للمجلة ورسم خطوطها في هذه الافتتاحيات التي لي شرف كتابة مدخل لها وان كانت غير محتاجة اليه .

ذلك انها تعبر في الحقيقة اكثر من غيرها من المقالات والبحوث عن هذا الاختيار ، اى التوازن البناء المثمر الذى ينم في جوهره عن صراع مكين ، صراع حي بين اسمى مقتضيات الفكر وانبل دوعي الواقع ، صراع يتجلى في الركون والايمان المطلق للفكر ثم في آن واحد الانفلات من سجنه والانسلال من اسره وقيده ولعل ما كتبه صاحب « الفكر » سنة 1953 يدل على هذا المنحى في قوله :

« أرى ان النسق الفكرى مهما كانت حكمة صاحبه ورجاحة عقله يقيد الفكر نفسه ويسجن العقل ذاته . وانه يجب ان يفسح المجال واسعا شاسعا امام النفكير وألا يضع امامه سدودا وحدودا ، فلا يرتاح الفكر تماما الى نتائجه ولا يقول قد ادركت الحقيقة المطلقة ولا حقيقة وراءها وحصل لي اليقين الذى ليس بعده يقين فاذا هو فعل ذلك يكون قد تعب في اقامة سجنه بنفسه حجرة بعد حجرة ليمكث فيه طول العمر من حيث لا يدرى ، وما اكثر السجون الممتازة المؤثثة المفروشة التي يتعذر عليك التمييز بينها ، وبين منزلك » .

ويذهب الاستاذ البشير بن سلامة الى ان هذه الرؤيا الابداعية هي التي قادت بالمقال الافتتاحي في مجلة الفكر والذى يكتبه الاستاذ مزالي ؛ الى التوازن؛ أو الفكر التعادلي الذى ينفلت من الفلسفة بمعناها التقليدى الى طلاقة الفكر ومرونته وارتباطه بالواقع ومقتضيات الحياة ، ويعلن نهاية عهد الفلسفة المكبل المقيد ، ويفتح الابواب لاحلال مد الفكر اليقظ المتحرر المنساب في عوالم الخلق والشعر ولبناء مكان سجن المذاهب المقننة .

ذلك أن صاحب الفكر الذى نادى بجعل الرياضة أداة للتكامل النفسي والجسمي ، «رياضي قولا وعملا» بتعبير الاستاذ البشير ؛ ذلك أن الرياضة الفكرية تتجلى في التزامه ، ولا سيما من حيث شكل تحرير المقال الافتتاحي الذى لا يحتل اكثر من صفحة واحدة ؛ تتسم بالتكثيف الفكرى ؛ والتوازن بين وحدات المقال التحريرية يقول الاستاذ البشير مؤكدا هذا المعنى :

«وانه ليس من مصطنع الكلام ان نتوقف قليلا للنظر في التوازن من حيث المضمون لنستجلي هذا التوازن من حيث شكل الافتتاحية لان هـذه الظاهـرة المتمثلة في المحافظة على مسافة واحدة مهما كانت طاقة الفكر وغزارتها هي عمل من قبيل النزعة الرياضية التى تفرض على الرياضى ان يقطع المسافة المضبوطة في اقل ما يمكن من الوقت اى باقصى ما يقدر عليه من السرعة وهو امر لا يحصل عليه الجسم الا بعد وجود التوازن التام والدربة الطويلة بين جميع الامكانات الجسدية والنفسانية والعقلية .

وصاحب « الفكر » يحافظ دائما على مساحة افتتاحيته ليشحنها ، وكأنه فى سباق ، بأغزر ما يمكن من الافكار فى نفس واحد وبالشحنة النفسية الواحدة وفى حالة تكاد تكون صوفية .

وكيف لا ، وأنا أعرف الناس بظروف كتابته اذ هو لا يختلي مثلما يفعل عامة الكتاب فينتحي مكانا قصيا ، بل انه يقتطع وقته من زحمة المشاغل فى نهاية كل شهر وبعد اتمام العدد طبعا وتصحيحا بين مكالمة هاتفية واخرى او بين اجتماع بعيد عن شؤون المجلة وبين آخر وهو فى كل مرة ، مهما تضافرت عليه دوافع اليأس او هزته بوارق الامل ومهما طوحت به حساسيته المرهفة وحدسه النافذ وبعد نظره اليقظ ومهما تغلبت شؤون السياسة وتعقدت ، يختطف من الزمن فترة يوجد فيها ذلك التوازن او تلك الحالة الصـوفية ، اوحالا شعرية خاصة ، رغم تبرئه من الشعر ، يكتب فيها تلـك الصفحة التى لا تقل عن القصيدة متانة فى الشكل ، وايقاعا فى الجملة وموسيقى فى اللفظ مع وضوح الفكرة وتعدد الاغراض .

ذلك ان الافتتاحية الواحدة تتضمن فى اكثر الاحيان مواضيع عديدة ولكنه يحرص على ان يوجد توازنه فى محاولة البحث عن وحدة شكليـة تـامة بين اغراض متنافرة وأفكار متباعدة باختيار الفقرات المتوازية التى تنطلق من البدء متساعدة كتـنفسة واحدة لتنزل فى آخر فقرة وقد صرفت اقصى ما يمكن من الطاقة الخلاقة .

انا اعتقد ان هذا التحليل يستفسر به الاستاذ محمد مـزالى او سينكـره انكارا لما جبل عليه من تواضع كريم ومن شدة على نفسه بالغة ، وسيعزو هذا الى ما بينى وبينه من اخوة متينة قديمة العهد ، فقـد امتحنها الدهـر ، تدفعنى الى تحكيم العاطفة وتغليبها على الموضوعية ولكنى اتمسك بما كتبته وما على القارىء الا ان ينظر الى الافتتاحيات من هذه الوجهة وسيرى اننى قصرت فى ذلك تقصيرا .

على كل فان التوازن بين وضوح الفكرة ونفاذها ودرجة ابلاغها موجودة فى الافتتاحية الواحدة بارز لكل ذى عينين ·

واذا كانت دراسة الافتتاحية من هذه الوجهة «الشكلية» لا يسمح به المقام فان التوسع فيما تضمنته الافتتاحيات من اغراض وآراء ومواقف متماشية مع هذا التوازن الذى لمحت اليه يفرض نفسه هنـا ، وليس غرضى ان ألـم بهذا الغيض الماما واطرحه بين يدى القارىء ملخصا ، لان ذلك ربما يشوه ما حذق الاستاذ محمد مزالى فى ابرازه جميلا ، رائعا ، جذابا سهل التناول على عمقه وخطورة شأنه ، بل غرضى هو أن اجهد فى بيان التوازن الذى أوجده صاحب «الفكر» بين جانب من الافكار والاراء والمواقف تظهر عند بعضهم ، ممن أكل نفوسهم براق المذاهب وغرر بها طلاء المقاصد الدفينة . متناقضة بعيدة عن ان تعانق الواقع وتنسجم مع متطلباته العرضية .

وفى حقيقة الامر فان الناظر الى هـذه السوانح من هـذه الوجهة يتصداها ويتجاوزها الى رؤية الاستاذ محمد مزالى الى الكون والى تصوره قولا وعمـلا لدور رجل الفكر ذلك ان هذه الافتتاحيات ليست هى وليـدة مناسبات فقط ، وان ارتبطت بأحداث معينة ، بل هى تجسيم لنظرة شاملـة منطقيـة متكاملـة بمقتضاها يسير صاحب « الفكر » فى جميـع الوان حياته .

فلست أعرف الى اليوم ، وانا الذى اديم عشرته ودوامتها قبل واثناء تقلبه فى المهام السياسية الخطيرة ، موقفـا واحدا وقفـه فى السـر والعلـن ، او جانبا واحدا من حياته العامة والخاصة يتضارب مع اقواله ومع ما يظنه الحق والواقع ، وهذه لعمرى من أخص خصائص المثقف ورجل الفكر لو تـدبـر المتدبرون ·

فللمرء الا يوافقه فى رؤيته الخاصة للكون وفى اتجاهه او منحـاه الـذى يواجه به شؤون الحياة والفكر ولكنه لن يتسنى له ان يقول ان محمد مزالى يتضارب مع نفسه او «ان افعاله تلعن اقواله» كما يطيب له ان يعبر بذلك عن كل من يناقش نفسه بنفسه أو من تتباين تصرفاته فى الحياة العامة مع تصرفاته فى حياته الخاصة · فالحديث اذن عن افتتاحيات الفكر هو الحديث عن محمد مزالى كلا متكاملا وعن هذا التوازن الذى اوجده لنفسه فى حياته العامة التى تهم الجمهور بله حياته الخاصة ·

وان اهم ظاهرة يمكن الاقتصار عليها هنا لبيان هذا التوازن هو مفهـوم الالتزام عنده فى مواجهته القضايا المختلفة وفى ممارسته للاشيـاء والنـاس

وخاصة الميدان الثقافي والادبي وهذه الظاهرة هي في حد ذاتها برنامج حافل للحياة قد يقصر عنه تحليل وتتضاءل امامه كلماتي ٠

فكيف امكن لصاحب «الفكرة» ان يوجد التوازن بين امرين اثنين بين التزامه السياسي الشديد وبين توقه وكفاحه في سبيل الحرية في الادب خاصة وان التزامه السياسي يظهر جليا في المهام الخطيرة التي يضطلع بها وفي تعلقه المتين بوطنه وفي حبه له واسرافه في الذود عنه والعمل بكل جوارحه لنهضته وهو في هذا يلتقي مع الكثيرين من زملائه ومع الكثيرين من التونسيين المؤمنين باصالتهم وبدورهم في الحياة ٠

وطبيعي أن يقود هذا نظريا الى جملة من المواقف تحد من حرية العمل وترسم سبيلا مخططا بمقتضاها يكون المجال ضيقا بالنسبة للكثير وتكون الحرية قد اصابها الضيم ٠

وطبيعي ان نجد شقا كبيرا ممن لم يفهموا الالتزام على حقه ، يذهب الى تحديد وجهة للادب صلبة متحجرة ، وذلك باسم الوطن وباسم الصالح العام وباسم المصير المشترك بينما جانب عظيم من هؤلاء القوم لم يكن التزامه السياسي في مثل درجة التزام الاستاذ محمد مزالي ٠

ورغم هذا فان صاحب «الفكرة» يعلن في عدة مرات ، مما سيدركه ادراكا المتصفح لهذا الكتاب ، ان «الحرية كل متماسك اذا اصابها الضيم في ميدان أو شخص أو فريق فانما تكون حينذاك مهددة في وجودها وجوهرها واساسها» وان « الحرية لا تستقيم بغير الديمقراطية » .

فكيف يستقيم على الاقل في الميدان الادبي هذان الموقفان ؟ وكيف امكن للاستاذ محمد مزالي أن يفتح مجلته لمختلف المدارس ولتعدد الاتجاهات من دون ان يناقض نفسه ويتضارب مع التزامه ؟

ذلك انه يعتقد ان الاديب ابو الخلاق ليس في «حل من قومه» وأنه يجب التفريق بين الاديب والمواطن ، بين ضرورتين اثنتين : بين وجوب رعاية حرمة الادب الاصيل وضمان حرية الاديب وصون تجربة الخلق والابداع التي لا بد منها لكل عمل أدبي انشائي طريف ، وبين منزلة الانسان المشخصة في حدود الزمان والمكان الماثلة أمام كل حس مرهف وضمير حي وعقل يقظ» ٠

ويعتقد كذلك ان قضية الالتزام في الادب هي «قضية الادب او اللاأدب» وهذا يعني ان المعايير التي يخضع لها العمل الادبي هي من جنس معين وانه ليس لاحد ان يسلط عليه مقاييس سياسية او حتى علمية ٠

ويرد كل هذا فى الحقيقة الى مفهوم طالما نادى به وهو مسؤولية الكاتب اذ يكفى ان يكون الاديب شاعرا بمسؤولية فى مجتمعه لينتفى كـل نقاش فى هذا المجال ، ويكون «الادب التونسى بذلك ادبا حرا ينبع من طرافة الشخص ويستمد من ثروته الكامنة وعبقريته الاصيلة ولكنه يقرر مع ذلك مسؤولية الكاتب وقيمه بالرجوع الى المصلحة العامة والشعور بالتضامـن مـع الوطـن والانسانية عامة» (3) .

والالتزام بهذا المعنى لا ينتفى مع الحرية بل هو يؤكد الحرية ويقتضيها ويدعو لا الى خدمة الوطن الاصغر فقط بل الوطن الاكبر ايضا ، ولهذا فان اعلان مؤسس «الفكر» فى اول عدد من المجلة فى اكتوبر سنـة 1955 م عن وجوب النظر فى شؤون دارنا العقلية والبحث عن «مذهب فكرى تونسى» هو لا يناقض التفتح الى المذاهب الاخرى والنظريات بل هو تعمد ان يزيـد عبارة «فكرى» مع عبارة «مذهب» حتى ينتفى ما آمن به من أن كل نسق فكرى انما يسجن نفسه بنفسه فبالفكر الحى اليقظ المتجدد يسلم كل مذهب من الانغلاق والتحجر ويتفتح الى كل جديد وينصهر فى الانسانية قويا مكينا .

لذا فانه من السهل بعد هذا على المتصفح للكتاب المطلع عليه ، لا كأجزاء بل ككل ، ان يلمس هذا التوازن فى جميع المواقف من قضايا تشغل بـال جميع اهل الارض مثل الاصالة والالتزام والدين والادب والحرية ... ومن السهل عليه ايضا أن يدرك مدى الوضوح الذى عالج به الاستاذ محمد مزالى مشاكل الثقافة وفنون الادب وشؤون الوطن وغيرها ...

وعلى كل فانه اذا كان القلم قد انساق الى بعض الاعتبارات العـاطفية ، من باب الوفاء والاخلاص والصدق ، وهذا كاف لان يبرر ذلك ، فان ما كتبته هو أيضا من قبيل الحث على ان تعتبر به الاجيال الصاعـدة حتى تعـرف حق رجالها المخلصين وتتبين مدى ما وصلوا اليه بالعناء والجهد المتواصليـن ، وبتضافر العزائم الصادقة المحبة للخير ، من كسب الرهان فى خدمة الوطن والانسانية لانهم من فصيلة من «آثروا» كما أكده صـاحب الفكـر فى اول اعداد سنة 1955 : « على السعادة العظمة » (4) .

(يتبـــع)

د. عبد العزيز شرف

---

(3) البشير بن سلامة فى 2 اكتوبر 1969 رئيس تحرير مجلة «الفكر» .

(4) البشير بن سلامة فى 2 اكتوبر 1969 رئيس تحرير مجلة «الفكر» .

أُطيافي على شاطِئ "قمرت" (*)

شعر: سُنيا يوسف

(قمرت) هام بشطها المجدافُ ... غنى الهوى .. وترنحت أعطاف :
وتوشوش الشطآن منها غيرة ... حسناء أسكرها الهوى الشفافُ
سطعت بها شمس الضحى ... فوق الربى فتمايل الصفصاف
الرملُ تبرٌ .. واللجين بموجها .. ... والبحر يزخر .. ملؤه الأصداف
تحلو الأهازيج العذاب كأنما ... في لحنها أنشودة .. وهتاف
(قمرتُ) هاجت ذكرياتُكِ خاطري ... عانقَتُها .. والذكريات لطاف
أيام كان العمر يزهو نضرة ... ما العمر؟ ما الأيام ؛ ما الأهداف ؟
الا هديلا للحمام ونغمة ... ريانة تزهو بها الأعطاف
ايان يدفعني الحبيب لموجه ... ويقول : إِني لا أغار .. ولا أخاف
وَيعود يجذبني لرحبة صدره ... أواه ! ان الصدر منه ضِفاف !
السحر والحب المعطر نفحه ... والبحر يَسْنَحُ فوقه الخطاف
البحر في (قمرت) أعظم منة ... لله بحر شطه مصطاف !
أمواجه تشفي العليل وجوُّه ... نعم الانيس ! وكله أطياف .

اريانة العليا في 1985/6/3

(*) **قمرت** : اسم لأحد شواطىء تونس الجميلة .

قراءة تحليلية لمسرحية "ليالي العمر"

تأليف : فوزي عبد القادر الميلادي
عرض وتقديم : عاطف عز الدين

بدأ المستشار الاديب فوزى عبد القادر الميلادى كتابة مسرحية (ليالى العمر) منذ زمن ، كمسرحية من فصل واحد تنتهى بانتهاء الفصل الاول . ثم راى ان شخصياتها ـ من الثراء ـ يتعين اعادة كتابتها فى صورة مسرحية من ثلاثة فصول تعبر عن بعض جوانب الحياة الاجتماعية فى مصر وخاصة فى الريف قبل ثورة 23 يوليو .

وبعد ان اكتملت فصول المسرحية ، وامعن المؤلف النظر فيها ، راى ان يقدمها الى القارىء باعتبارها الجزء الاول من ثلاثية مسرحية يضم كل جزء مسرحية من ثلاثة فصول متكاملة ، تصور الثلاثية باكملها الحياة الاجتماعية فى مصر قبل وبعد 23 يوليو 1952 وذلك على غرار ثلاثية الكاتب الكبير نجيب محفوظ .

تلخيص المسرحية :

والفصل الاول من مسرحية (ليالى العمر) بعنوان (ليلة العودة) تقع احداثه فى قصر عبد الودود باشا فى احدى قرى الوجه البحرى قبيل ثورة 23 يوليو 1952 وتقوم الخادمتان مبروكة وباتعه بتنظيف احدى الحجرات وتلميع الاثاث حيث الاستعداد لاستقبال سعدية هانم ، وبعد ان بذل عبد الودود باشا جهدا لاسترضائها ، وتوسط لديها عدد من الشخصيات لتقبل الصلح ، وتسمع باتعه اصواتا فى الخارج ، وترى سيارة سعدية هانم التى تقف امام القصر حيث

ينزل الباشا متأبطا ذراع الهانم ، ويدخل السائق حاملا اربع حقائب ، وبعد ذلك تدخل الهانم بصحبة زوجها ، وينظر الباشا الى زوجته فى حنان زائف : (لقد شرفت القصر .. هل رايت كيف امتلأ بالضياء .. لقد كان بدونك مظلما كئيبا .. اليس كذلك يا مبروكة ؟) .

مبروكة : طبعا يا سيدى اليوم عندنا عيد .

وتشعر سعدية هانم بكثير من الراحة ، وهى فى طريقها الى القصر حيث الحقول والاشجار وحيث احسن الجميع استقبالها ما عدا خادمتها كريمة ، ويبرر الباشا سلوكها بانها مخلصة وامينة وافضل خادمة فى القصر ، وتؤكد سعدية بانها لم تمش خلفها ، وتحمل الحقائب .

ويعود الباشا لتبرير سلوكها بانها قد تكون مريضة فتصمم الهانم على طردها فورا من القصر لانها ترفض الخادمات المريضات .

وتشك سعدية هانم فى تصرفات الباشا نحو كريمة ، وتطلب من مبروكة بمراقبته . وهنا يتبين ان هناك اتصالا بين كريمة والباشا ، وتطلب الهانم استدعاء كريمة كى تؤدبها ، قبل الطرد من القصر وتطلب منها ابريقا لغسل قدميها وترفض كريمة ويحضر الباشا الذى يهدىء من ثورة الهانم ، وان تعفو عن كريمة ، ولا داعى من عقابها ، وهنا تفجر كريمة مفاجأة بانها ليست خادمة ، ولا عشيقة لاحد . ولكنها زوجة الباشا ، وهنا تتأكد الهانم بان الباشا يحب مزارعها واملاكها اكثر مما يحبها . وتعتزم الرحيل الى بلدتها وتطلب كريمة من الباشا ان يسمح لها بالرحيل كى تنتحر حسب الاتفاق لانها يجب ان تدفع حياتها ثمنا لافشاء سر الزواج وتخبر كريمة الباشا بانها حامل ، وهنا تدخل مبروكة لتعلن عن وصول الهانم لان عطلا اصاب السيارة ويعامل الباشا سعدية على انها ضيفة على سيدة القصر : كريمة هانم .

والفصل الثانى يسمى (الطفل والنار) تدور احداثه فى حجرة المكتب بقصر سعدية التى تعانى من الوحدة ولكنها تعلم من الجرائد ان الباشا انجب طفلا من كريمة . عندئذ تقرر الهانم تعيين حسن افندى سكرتيرها مديرا لكل املاكها بدلا من الشيخ عبد الصمد ، وهنا يتبدل المشهد باكمله ـ عن طريق الاضاءة التدريجية ـ ويظهر امامنا الباشا وكريمة ومبروكة .

كريمة : (فى يدها الطفل) انظر يا باشا .. هذا الطفل الجميل انه يشبهك .

الباشا : انه جميل حقا .. (يقبله) .

(يسود الظلام على المسرح ثم يعود الضوء العادى من جديد) .

وتطرد (سعدية هانم المستأجرين لان الذى يعمل فى الارض يجب ان يكون فى خدمتها ، وتطلب سعدية هانم من حسن افندى الاتصال بها .

وفى المشهد الثانى من الفصل الثانى حيث يحضر زهدى باشا وابنه سعيد للتوسط لدى سعدية هانم للابن ليحصل على درجة الباكوية ويعرض زهدى باشا فكرة زواج ابنه على سعدية هانم التى ترفض ان تلدغ من الباشوات وابناء الباشوات مرة اخرى ، وذلك حتى يتم الفصل فى النزاع القائم بينها وبين زهدى باشا حول قضية الشفعة ، وتعرض سعدية هانم على حسن افندى فكرة قتل الطفل ابن الباشا ، وبعد ذلك تتزوج سعدية هانم حسن افندى بعد ان تنعم عليه بالباكوية .

والفصل الثالث بعنوان (المؤامرة)

ويدور فى منزل عبد الودود باشا حيث يحضر الموثق الذى يكتب عقدا يكون بمقتضاه ان الطفل يسرى ابن الباشا يحصل على نصف مليون جنيه عندما يبلغ سن الرشد ، ويشعر الباشا ان يسرى يتأوه ويتم استدعاء الطبيب ، ويتضح ان يسرى مصاب بالتسمم ، ويتم نقله الى المستشفى ويتهم الباشا كريمة بتدبير المؤامرة لتحصل على مئات الافدنة ، وعبثا تحاول كريمة الدفاع عن نفسها امام اصرار الباشا الذى يتذكر وعيد سعدية هانم وتهديدها ، وتتضح له براءة كريمة .

وفى المشهد الثانى من الفصل الثالث تدور احداثه فى حجرة الاستراحة فى مستشفى القرية حيث تعترف سعدية هانم التى شفيت من العقم بخطئها ويتم انقاذ الطفل ، ويعتذر الباشا لكريمة التى تعده بانها ستقف بجانبه ولن تتخلى عنه ابدا .

والمسرحية وان كانت ذات طابع اجتماعى الا انها تؤرخ لجانب هام من الحياة المصرية قبيل ثورة 23 يوليو سنة 1952 ، ودون اقحام على البناء الفنى للمسرحية فان المعلومات التاريخية التى تاتى فى سياق المسرحية ، وتتعلق بالحياة فى الريف قبيل الثورة ، تاتى كجزء من نسيج المسرحية ، وليس مفروض عليها او ثمة افتعال .

ومن المعلومات التى تبرز من المسرحية :

1) هذه الحرية الكاملة لباشوات العهد السابق فى اقتناء ما يشاؤون من مساحات واقتطاعات واراض زراعية دون قيد او حدود وهم يتوسعون فى

شراء هذه الاراضى اكثر مما يهتمون بشراء المبانى فى المدن لانهم بامتلاكهم الارض ـ فى ذلك العصر ـ كانوا يملكون الارض وما عليها ، وتزداد سطوتهم ونفوذهم على الفلاحين الاجراء ، وجاء الدليل على ذلك واضحا فى موقفين بالمسرحية :

الموقف الاول : رغبة عبد الودود باشا فى ادارة املاك زوجته بعد ان يصالحها دون النظر بما تمليه عليه الكرامة والجوانب الانسانية .

الموقف الثانى : وهو الاهم : شراء الباشا 1000 فدان هدية لطفله الوليد كما جاء فى بداية الفصل الثالث .

2) شراء الالقاب والمناصب عن طريق الثروة : وقد اوضح المؤلف ذلك ـ فى الفصل الثانى ـ عندما وعدت سعدية هانم (زوجة الباشا السابقة) سكرتيرها حسن افندى بان تشترى له الباكوية والباشوية واصبح زوجا لها ، ومن خلال حديث الباشا عن البكاوية والباشوية ومن خلال حديث سعدية هانم عن هذه الالقاب يبين ان الحصول على هذه الالقاب يتم عبر جسور وصلات خاصة تربط بعض البسطاء بالقصر الملكى .

3 ـ ان اصحاب النفوذ من الاقطاعيين كانوا لا يقيمون وزنا لسيادة القانون ، وينزلون العقوبات بمن يجترىء على حرماتهم ، ويتضح لنا ذلك جليا ـ فى الفصل الثانى من المسرحية ـ من تصميم سعدية هانم على انزال العقوبات بمن اجترأ على الاعتداء على املاكها سواء بتسميم المواشى او حرق المزروعات دون تسليمهم للقضاء او العدالة .

4 ـ الفوارق الاجتماعية بين الطبقات شديدة العمق حتى ان الباشا عندما رضخ بالزواج من كريمة زواجا رسميا كان من شروط اتمام هذا الزواج انه اذا افشت كريمة هذا السر ـ لسبب ما ـ فستدفع ثمنا لذلك .

5 ـ سيطرة راس المال على الحكم حتى ان موثق الشهر العقارى انتقل الى منزل الباشا ليوثق عقد شراء الارض ، ولما طلب من الباشا التوسط له للنقل الى القاهرة لاعتزامه الزواج والاستقرار هناك ، نهره الباشا فى عنجهية لانه يريد موظفى الدولة الذين يتعامل معهم خاضعين له خضوعا كاملا مثل ذلك الموثق ، ووعده بان ينظر فى نقله الى القاهرة عندما يشترى عمارات هناك لكى يقوم له بنفس التسهيلات والخدمات . وواضح من ذلك ان كلمة الباشا مسموعة لدى اجهزة السلطة كلها وذلك على حساب السواد الاعظم من الشعب الذى كان لابد

له ان يظل صامتا مما جعل الامور تسير من الاسوء الى الاسوء وهـذا بعيد كل البعد عن العدالة الاجتماعية مما كـان له تاثير كبير على مجريـات الامور فى المجتمع المصرى قبل ثورة 23 يوليو 1952 .

البنـاء الفـنى فى المسرحيـــة :

أولا : الغوص فى اعماق النفس البشرية ، وتجريد ـ هذه النفس ـ من كل

1 ـ زيف او تظاهر وخاصة فى حالات الضعف البشرى امام الاغراءات ومن ذلك انزلاق الباشا انزلاقا حادا فى حب كريمة الذى اثمر عـن الزواج والطفل فالانسان مهما زادت ثروته وعلا مركزه لا يعدو فى جوهره ان يكون بشرا عاديا يحب ويكره فالباشا يجد نفسه منساقا فى حب خادمته كريمة .

2 ـ الغيرة التى اكلت قلب سعدية هانم عندما انتصرت خادمتها كريمة عليها فى الفصل الاول ورغم ثقافة سعدية هانم الرفيعة وتربيتها فان الغيرة اعمتها كأنثى جريحة عن كل شىء حتى وصل بها التفكير الى ارتكاب جريمـة قتـل الطفل ـ بالاشتراك مع السكرتير حسن افندى ـ وهى ابشع جريمة ترتكب فى الوجود .

3 ـ طلب سعدية هانم من سكرتيرها حسن افندى الزواج بها ، وهو ان كان له بواعث ظاهرية متعددة منها الانتقام ومنها الكيد مـن الباشا والتآمر عـلى اسرته الا ان ذلك فى الوقت نفسه يدل على ان سعدية هانم مثـل باقى النساء تحن الى رجل تستظل بظله ، ويرضى عواطفها وغريزتها ولولا انه وجـد لديها ميلا خاصا او عاطفة معينة نحو هذا السكرتير لما نزلت هذه الدرجات المتعددة لتأخذ بيد السكرتير وترفعه لمرتبة زوجها فى الوقت الذى يمكنها ان تبحث عن قاتل مأجور دون ان تورط نفسها فى الزواج من سكرتيرها .

4 ـ الشعور بالاثم الشديد مهما كان الانسان شريرا فالانسان بطبعه داخله الخير والشر ونرى هذا متمثلا فى سعدية هانـم فعندما فوجئت بتنفيذ مؤامرة سم الطفل رغم تعليماتها بارجاء العملية ، هذا الشعور بالاثم وتأنيـب الضمير طغى على كل مشاعرها وعواطفها حتى عندما تعرضت حياتها للخطـر على يـد الباشا زوجها السابق عندما استبان له دورها فى المؤامرة ، ورغـم سماحه لها بالانصراف اثناء لقائه بها فى المستشفى ، والطفل ما زال بعد فى خطر .. رغم هذا ، ورغم الحاح الجميع لتبتعد عن مكامن الخطر الذى كاد يذهب بحياتها فى صورة انتقام الباشا منهما رغم ذلك آثرت البقاء فى المستشفى ، وهى حزينـة باكية من اجل الطفل البرىء الذى قادها الحقد الاعمى الى محاولة التفكيـر فى

اغتياله بل وطلبت فى احدى مواقف المسرحية (الفصل الثالث المشهد الثانى) ان يقتلها الباشا كى تستريح من عذاب الضمير .

5 ــ رغم عجرفة الباشا ونفوذه فانه ازاء تصاريف القدر وقف ذليلا عندما احدق الموت بابنه الوحيد الذى اتى بعد طوال انتظار ، وتسلل الايمان الى قلبه كما يتسلل الى غيره من البشر فكان راحة له وبلسما حتى قبل ان يكتب للطفل النجاة ، وذلك فى الفصل الثالث المشهد الثانى .

ثانيا : اعطى المؤلف المبررات لكافة التغييرات النفسيــة والعاطفيــة التى طرأت على موقف ابطال المسرحية :

1 ــ الباشا عقب كشف سره تحول بالتدريج من رغبته فى تنفيذ القصاص على كريمة الى التعاطف معها ثم الانحياز بالكامل ، وقد دفعه الى هذا ثلاثة امور :

وهى : الحمل المفــاجىء . وجمالها المفرط . ولباقتها الشديدة .

2 ــ انزلاق حسن افندى السكرتير الى التورط فىجريمة ضد الانسانية كانت تعافها نفسه منذ البداية ، وهى محاولة اغتيال الطفل التى تمت بــعد ان نجــح حسنافندى فى تسميم الطفل ، ولكن العناية شاءت العناية الالهية ان يتم انقاذ الطفل فى اللحظة الاخيرة ، وقد تم تسميم الطفل تحت ضغوط نفسيــة رهيبة اهمهــا :

اغراؤه بالزواج من سعدية هانم ، ووعــده بحياة القصور والباكويــة ومــن الانتقال المفاجىء من طبقة صغار الموظفين الى طبقة كبار القوم فى مجتمع لم يكن يعرف الا المال والنفوذ والالقاب .

ثالثـا : تغير عواطف سعدية هانم بعد اكتشاف الجريمة مــن النقيض الى النقيض كان له ما يبرره لانها احست بعوارض الحمل بعد ان تم علاجها من العقم فتحركت فى داخلها عاطفة الامومة وجرى فى دمها الحنان لذلــك اسرعــت الى المستشفى للاطمئنان على سلامة الطفل وتقديم كل عون لكريمة وشد ازرها .

لغـة الحـوار : اتى الكاتب بلغة فصيحة مبسطــة لا هى بالعاميــة ولا هى بالفصحى المتقعرة بحيث يسهل على كافة الطبقات فهم هذه اللغة ، وفى الوقــت نفسه يحتفظ بالطابع السليم باسلوبه باعتبار ان المسرحية المكتوبة تعد جزءا من المكتبة العربية ، وهذا لا يقلل من شأنها لو كتبت بالعامية اسوة بمسرحيات على سالم وسعد الدين وهبه ونعمان عاشور وتوفيق الحكيم والفريد فرج فكل هؤلاء لهم فى المكتبة العربية الكثير من المسرحيات الجيدة باللغة العامية ، ومع

ذلك فان استخدام اللغة العامية لا تعيب المسرحية طالما تقدم لنا فكرا جديدا وجادا .

وقد احسن الكاتب بتقليل عدد الشخصيات مما جعل الحوار سليما وساعد قلة عدد الشخصيات في المشهد الواحد المؤلف على اجادة رسم الشخصيات في المشهد الواحد ، وبذلك كانت كل الشخصيات موظفة توظيفا سليما لاننا كلما قللنا عدد الشخصيات كلما احكمنا قبضتنا عليها .

كل هذه العوامل ساعدت المؤلف على تقديم مسرحية جديدة من حيث الفكرة، وجيدة من حيث البناء ، وشيقة من حيث الحوار .

ثقافـة الكاتـب :

وقد تأثر الكاتب في مسرحية (ليالي العمر) للكاتب النرويجي هنريك ابسن، والكاتب الايطالي لويجي ستفانو بيرانديللو ، ويبدو ذلك واضحا في صياغة الفصل الثاني من المسرحية لان الستارة اسدلت على موقف يدعو القارىء والمتفرج الى ترقب الاحداث التي ستأتي بعد ذلك بلهفة مما يساعد على التشويق تماما كما حدث في مسرحية (بيت الدمية) لهنريك ابسن ، كما ان استخدامه لعملية الاسترجاع في الفصل الثاني مع تغيير الاضواء على المسرح قد عمد الى هذا التكنيك في البناء الكاتب الايطالي لويجي بيرانديللو .

كل هذا التأثر بالمسرح الاوربي ساعد المؤلف على اجادة بناء المسرحية واستخدامه الى اكثر من طريقة لمعالجة الفكرة مما اثمر عن مسرحية جيدة البناء .

ومن قراءة المسرحية يتضح لنا عن يقين بان الكاتب قد عايش المجتمع المصري ، ونفذ الى اعماقه في كافة طبقاته مما ساعد المؤلف على اجادة رسم الشخصيات ، ومما استطاع معه ان يقدم صورا نابضة بالحياة لشخصيات مختلفة من خدم وحشم الى سكرتير وباشا وهانم زوجة الباشا وشخصيات اخرى مختلفة .

ومسرحية (ليالي العمر) جديرة بالقراءة ، والمناقشة الاكاديمية كي نضع ايدينا على سمات المجتمع المصري قبل الثورة ، وكذلك مناقشة ما جاء بالمسرحية من افكار انسانية وطريقة التكنيك لاعطاء كل ذي حق حقه .

عاطف عز الدين
(القاهرة)

• محمد الحليوى ناقدا وأديبا :

صدر بتاريخ 1984 بعنوان « محمد الحليوي ناقدا وأديبا » كتاب لمحمد الهادى المطوى وهو العمل الادبى الذى نال به من الجامعة التونسية سنة 1978 شهادة الكفاءة فى البحث .

يتناول محمد الهادى المطوي فى بحثه هذا بالدرس المعلم الكاتب التونسى القيروانى محمد الحليوى من جوانب انتاجه الثلاثة : النقد والمقالة والشعر .

لذلك فالكتاب ثلاثة كتب :

الكتاب الاول فى الحليوى الرجل وفيه ثلاثة فصول : فصل خاص بحياة الحليوي وترجمته الموسعة وفصل فى البيئة التى نشأ وترعرع وتكون فى أحضانها وهى البيئة الادبية الثقافية القيروانية وعلاقته بها وفصل ثالث فى طريقته فى الكتابة وآثاره .

والكتاب الثانى فى الحليوى يحتوى على بابين أحدهما : الحليوى الناقد، مفهوم النقد عنده اتجاهه فيه ومنهجه ومواقفه من القديم والحديث والقضايا النقدية والباب الثانى : الحليوى الناثر يخص فن المقالة عنده خصائصه أسلوبه وآراءه النقدية فيه .

أما الكتاب الثالث فخاص بالحليوى الشاعر منهجه الشعرى موضوعاته تحليلا وتقييما ومنزلته بين شعراء عصره .

وينتهى البحث أو الكتاب بقائمة للمصادر والمراجع وفهرس للاعلام .

ومن المعلوم أن الحليوي من معاصرى الشابى وأصدقائه (انظر رسائل الشابى) وذلك من الاسباب الاساسية التى جعلت شهرته واشعاعه مغمورين إذ طغت عبقرية الشابى وشهرته واشعاعه على جميع معاصريه فمن العدل أن تعاد للحليوي اليوم المنزلة التى هو حقيق بها وهذا ما فعله مشكورا محمد الهادى المطوى بعمله هذا ..

• **زاد الوفاء :**

صدر بتاريخ 1985 كتاب للاخ الاديب القصاص يحيى محمد بعنوان « زاد الوفاء » ، وهو مجموعة مقالات وتأملات وخواطر وآراء متنوعة المواضيع والاهتمامات والمشارب عبارة عن رحلة شيقة فى الادب والفن والتفكير التونسى خاصة مع وقفات تأمل فى الاجتماع والاخلاق والعمران والحضارة والقضايا الكبرى المعاصرة ومع توق دائم فى كل ذلك الى إثارة الانتباه وبعث الوعى .

وهذا الكتاب هو السادس من مؤلفات يحيى محمد المنشورة سبقته خمسة وهى : « نداء الفكر » (1969) ـ « حوار فى الظل » (1973) ـ « أحاديث النسيان » (1977) ـ « نوافذ الشراب » (1978) ـ وأخيرا « زمن الغياب » (1984) . وما تزال له آثار أخرى نأمل ألا يبخل بها علينا .

• **رباعيات :**

صدر عن الدار التونسية للنشر بتاريخ جانفى 1985 لمحيى الدين خريف مجموعة شعرية اختار لها من الاسماء منذ زمن : « رباعيات » وقد نشرت متفرقة منذ 1969 فى الصفحة الادبية الاسبوعية لجريدة « الصباح » .

والمجموعة المقدمة اليوم ليست سوى جزء صغير من رباعيات محيى الدين خريف وما أظنه الا قد انتقى ما أراد أن يحبوه بأسبقية الجمع والنشر دون اعتبار أسبقية النظم وتسلسل الظهور .

وكل رباعيات المجموعة تطفح بالحب والايمان والطمأنينة وإن بدا بين سطور الكثير منها تألم وتعذب وتحسر لا تبلغ أبدا حد الغضب أو الثورة أو الحقد

ولا غرابة فى ذلك فان الشاعر كما نعرفه آمن مسالم خجول عن غير نفاق وهو القائل فى مقدمة الرباعيات : « أومن بأن الشعر معبر للطمأنينة واليقين وإلا لما كان هنالك هاجس يتغلغل فى النفس ليوقظها من سباتها وتجعلها راضية مستبشرة بالحياة وتدفع عنها عذابها اليومى » .

• هروبا من الهروب :

هذا عنوان المجموعة السادسة للصادق شرف الصادرة بتاريخ نوفمبر 1984 عن مؤسسة « الأخلاء » وهى باقة حب وحنين يقدمها الشاعر الى المغرب العربى الكبير الذى يتطلع اليه ويؤمن بتحقيقه :

« ستعود الشمس للاشراق حتما كلما نمحو من الليل دجاه »

مع يقينه بكل ما يفرق البشر هنا وهناك :

« لقد فرقتنا قبائل كل الديانات

لم يكف هذا فجاءت قيود الدويلات

فينا تتاجر بالحرب باسم الشعوب »

لكن الديوان حلقات وفاء وحب : حب الأمومة وحب الوطن الأم وحب « الفكر » والحرية والكرامة والكبرياء :

« فأنا بالحب قد شجرت غابه

شجر الحب به تخضر أوراق الكآبه ... »

ومهما هرب الصادق شرف ... من الهروب فانه لن يهرب من الحب والحب لن يهرب منه أبدا ...

• أحبتي والليل .. والوطن :

هذه على ما نعلم المجموعة الشعرية الرابعة لبشير المشرقى صدرت عن مؤسسة « الأخلاء » فى أفريل 1985 والبشير المشرقى شاعر شاب يكتب فى صمت دون ضوضائية ولا تهريج ولا هروب الى ضبابية الرمز وانغلاقه بل فى وضوح الواقعية القاسية أحيانا :

« كل الشوارع فيك تونس ترتمي في الليل تغرقها المدامع »

ولا ثورة عشوائية على مقومات الشعر العربى .

وقصائد هذه المجموعة وإن نزعت أغلبها الى الشعر الحر فانها لم تخرج قط عن إيقاعاته الاصيلة .

كما أن المضمون وإن اكتسى عامة بالحزن والتألم فانه مع مسحـه القـاتم للساحة القومية خاصة والعربية عامة لا تخلو اندفاعاته الهـادئة من تفـاؤل حيث أن الشاعر يرى خلف الغيوم :

« فجـرا يرفـرف فى الفضـاء

أراه فـى الارجـاء طـالـع »

• **رسائـل المستشـرق المجـري جرمانـوس :**

صدر فى 69 صفحة كتيـب للدكتـور الفقيـد عيسى الناعـورى بعنـوان « رسائل المستشرق المجرى الراحل الحاج عبد الكريم جرمانوس » بعد أن صدرت فى عدد خاص لمجلة المجمع العلمى العربى الهندى بتاريخ 1982 .

ويشتمل الكتيب على 52 رسالة فى المستشـرق جرمانـوس الى الدكتـور الاديب الراحل عيسى الناعورى أعدها هذا الاخيـر للنشر وكتـب مقدمتهـا وعلـق عليهـا .

والمستشرق جرمانوس غني عن التعريف يعتبر أكبر مستعرب ومستشرق فى أوربا الشرقية شغل منصب أستاذ التاريخ والادب والثقافة الاسلامية فى جامعة بودابست وأسدى للغة العربية والثقافة الاسلامية جليل الخدمات أثناء عمره المديد (توفي عام 1979 عن سن 95 سنة) وهو مجري اعتنـق الاسلام وأعلن عنه مختارا فى مدينة دلهي بالهند سنة 1930 وعمـره اذذاك 46 سنـة فأصبح الحاج عبد الكريم جرمانوس بعد أدائه فريضة الحج .

وهذه المجموعة من الرسائل تعرفنا بجوانب مختلفة لشخصه وشخصيتـه وفضله الكبير فى التعريف بالثقافة العربية الاسلامية وإشعاعها فى بلده المجر وفى اوربا عامة ومدى سعيه للتعرف بالادباء والمفكرين العرب واقتناء انتاجهم وتعلقه بهم .



● **الدورة الخامسة لمؤتمر الوزراء المسؤولين عن الثقافة فى الوطن العربى :**

انعقدت بتونس على امتداد ثلاثة أيام (26 ــ 27 ــ 28 نوفمبر 1985) وتحت اشراف السيد محمد مزالى الوزير الاول ووزير الداخلية الدورة الخامسة لمؤتمر الوزراء المسؤولين عن الثقافة فى الوطن العربى التى نظمتها المنظمة العربية للتربية والثقافة والعلوم ، لمعاينة مدى تطبيق المؤسسات العربية المعنية لمقررات الدورة الرابعة التى انعقدت بالعاصمة الجزائرية سنة 1983 من جهة ووضع خطة ثقافية عربية شاملة من جهة أخرى .

وقد تميزت المشاركة التونسية فى هذه الدورة بثراء المساهمة ذات السند الميدانى الذى تمثله التجربة التونسية باعتبار العمل الثقافى بعدا من أبعاد التنمية الشاملة وقد أكد ذلك السيد محمد مزالى عند استقباله عشية الثامن والعشرين من شهر نوفمبر للسادة الوزراء ورؤساء الوفود المشاركين فى الدورة حيث أشار الى أن حكومة المجاهد الاكبر حريصة على ادخال الثقافة فى الدورة الاقتصادية وعلى تشجيع الاستثمار فى الحقل الثقافى ، مبينا أن كل التشجيعات والتشريعات التى أنجزت فى هذا الصدد قد بدأت تعطى أكلها ومكنت من تحقيق تقدم ذى بال ، كما أوضح من جهة أخرى أن الثقافة يجب أن تكون عامل توحيد وتقارب بين الشعوب العربية التى تمتاز عما سواها من الشعوب الاخرى بالانسجام من حيث المقومات الحضارية حتى نبنى الامة العربية على أساس تصور حضارى وانطلاقا من نظرة ثقافية مرورا بتنمية الثقافة وحمايتها من كل عوامل الانبتات وأخطار الزيغ صيانة لاجيالنا الصاعدة من الضياع والارتماء فى أحضان ثقافات غريبة عنها .

وتعرض السيد البشير بن سلامة ، وزير الشؤون الثقافية ورئيس الوفد التونسى فى افتتاح الدورة الى هذه المبادىء والتجارب الميدانية بالتحليل (انظر نص الكلمة المنشورة فى هذا العدد) .

وانتهت هذه الدورة فى الثامن والعشرين من شهر نوفمبر 1985 بموافقة المشاركين على الوثيقة الاساسية للخطة الشاملة للثقافة العربية والتعهد بتبنيها ، كما تمت الموافقة على ما ورد بالتقرير النهائى وتوصياته المتعلقة أساسا بالموسوعة العربية ، والمركز العربى للتعريب والترجمة والتأليف والنشر والمعهد العربى للترجمة ، والقمر الصناعى العربى وقضايا الاتصال فى الوطن العربى ، ومجابهة الغزو الثقافى الصهيونى والعلاقة مع المنظمات والهيئات الدولية العاملة فى الميدان الثقافى والانشطة الخاصة بالاحتفال بالقرن الخامس عشر الهجرى ، والمكتبة القومية المركزية ، ومتحف الحضارة العربية ، وصيانة المدن التاريخية العربية ، والمركز العربى للابداعات والبحوث المسرحية ، وقانون حماية المخطوطات العربية ، واتفاقية تيسير تداول الانتاج الثقافى وتشريع رعاية المبدعين واتفاقية حماية حقوق المؤلفين ، كما تم بهذه المناسبة الاتفاق على احتضان مدينة دمشق للدورة القادمة التى ستنعقد خلال 1987 تحت شعار « الثقافة العربية والتبادل الثقافى » .

وقد قرر المؤتمرون ارسال برقيتى شكر الى الرئيس الحبيب بورقيبة والسيد محمد مزالى ، وأخريين مماثلتين الى حكومة الكويت لما قدمته من دعم كبير للخطة الثقافية العربية الشاملة والى الاستاذ عبد العزيز حسين رئيس الخطة لعطائه الموصول فى انجاح أعمال اللجنة الدائمة للثقافة العربية . وتعليقا على ما توصلت الى انجازه هذه الدورة من قرارات وتوصيات قال الاستاذ البشير بن سلامه فى الجلسة الختامية : « أؤيد هذه الخطة ولكن تطبيقها يتطلب ارادة سياسية . وهذا رهين عقد قمة ثقافية عربية لتنفيذ الخطة ولا بد أن تعرض على الرؤساء والملوك العرب لانها سياسية واقتصادية فى المقام الاول » .

● الالكسو تسند ميداليتها الذهبية للاستاذ محمد مزالى :

كانت كل الدلائل والمعطيات تشير وبوضوح أيضا الى أن ذلك المساء الفاصل بين حلقتين من دورة الكرة الأرضية (21 ديسمبر 1985) سينقش حتما على صفحات الذاكرة العربية وسيحمل للمستقبل بشائر الزمن القادم .. زمن الاعتراف بالجميل لمخلصى هذه الأمة المجيدة ، ايمانا وأن هذا السلوك الحضارى هو وجه من وجوه اثبات الذات وفرض النفس واعلاء القدرات العربية وبالتالى الاعتماد أساسا على النفس لتأكيد الوجود .

كان افتتاح الدورة الثامنة للمؤتمر العام للمنظمة العربية للتربية والثقافة والعلوم منعرجا بارزا فى مسيرة الارتقاء العربى .. حضره الاستاذ محمد مزالى

والسيد الشاذلي القليبي الامين العام لجامعة الدول العربية وسمو الامير طلال بن عبد العزيز رئيس برنامج الخليج العربي لدعم منظمات الامم المتحدة الانمائية والدكتور محيي الدين صابر المدير العام للمنظمة العربية للتربية والثقافة والعلوم والسيد أحمد مختار مبو المدير العام لليونسكو والاستاذ ماك برايد رئيس اللجنة العالمية للحفاظ على التراث الفلسطيني والسيد عبد الهادي بوطالب المدير العام للأسيسكو بالاضافة الى وزراء التربية والثقافة العرب وأسندت فيه الميدالية الذهبية التقديرية للألكسو للأستاذ محمد مزالي ، وسمو الامير طلال بن عبد العزيز ، وقد جاء في نص تقرير اسناد الميدالية للسيد محمد مزالي والذى تلاه الدكتور محيي الدين صابر المدير العام للالكسو ما يلي :

« لانه رجل المسؤولية السامية الواعية ، في بلاده ، ولأنه رجل الاضافات الفكرية في الوطن العربي ، ولأنه أستاذ ومرب تخرجت على يديه قدرات نادرة في بلاده ولأنه المؤسس لمجلة الفكر والمشرف على اصدارها ولان ـ الفكر ـ كالشمس ميقاتا واشراقا تصل أبناء العروبة في كل مكان ، ولأنه نجح في اصدار هذه المجلة التي تعجز عن ضمان استمرارها بنفس الانتظام والمستوى حكومات .. ولان هذه المجلة أصبحت رسالة في الوطن العربي ، ولانه يرجع بانتمائه الى أسرة التربية والثقافة ، ولانه أحد أبناء المنظمة والاخذ بيدها عندما انتقلت الى تونس ولانه أحد المشاركين في اتخاذ أخطر قراراتها في دورتها الاولى التي انعقدت في الخرطوم ولانه دائما خير عون للمنظمة فقد قررت أن تسند له الجائزة الذهبية التقديرية الكبرى للثقافة والتربية والعلوم لسنة 1985 .

أما الاستاذ محمد مزالي فقد دعا في كلمته الدول العربية الى شد أزر منظمة الينسكو ومديرها العام السيد أحمد مختار مبو لمواجهة التيارات الاستعمارية والعنصرية التي تسعى الى احباط مشروعات هذه المنظمة العتيدة وأضاف السيد محمد مزالي مؤكدا أن عهد هيمنة ثقافة معينة على الدنيا قد ولى وانقضى وأن اثراء الثقافة العالمية لا يتحقق الا باسهام كل الثقافات وعطاء كل الشعوب وانه بغير ذلك تبقى الهيمنة مصدرا من مصادر الشحناء والبغضاء وعاملا من عوامل انخرام الشعوب . كما نوه بما تقوم به المنظمة العربية للتربية والثقافة والعلوم بقيادة مديرها العام الدكتور محيي الدين صابر من عمل جبار لخدمة الحضارة العربية والاضافة الى الحضارة الكونية .

وفي هذا السياق انتهز الاستاذ محمود المسعدي رئيس مجلس النواب فرصة وجود الأستاذ محمد مزالي في رحاب المجلس أثناء مناقشته ميزانية الوزارة الأولى ليهنئه على احرازه الميدالية الذهبية للمنظمة فقال ضمن كلمته متوجها الى النواب :

« ولتسمحوا لى باغتنام فرصـة نظرنا فى مشروع ميزانيـة الوزارة الاولى للتقدم باسمى الشخصى وباسمكم جميعا بأحر التهانى وأطيب التمنيات الى حضرة المفكر والأديب الكبير الأستاذ محمد مزالى الـذى شرفنا هـذا المساء بحضوره أشغال جلستنا العامة وذلك بمناسبة احرازه على الميداليـة الذهبيـة التقديرية للمنظمة العربية للتربية والثقافة والعلوم وفى ذلـك شرف جديـد يناله وينال من خلال شخصيته التى هى لذلك أهل وخير أهل تونس البورقيبية محررة الفكر والعقل التى يمثلها بقوله وفعله أحسن تمثيل » .

وقد نال فى نفس هذا الحفل ميدالية المنظمة صاحب السمو الامير طلال بن عبد العزيز فاليه تهانينا على احرازه هذا التكريم وعـلى ما يقوم به مـن أعمال جليلـة .

● ذكرى مرور نصف قرن على وفاة الطاهر الحـداد :

احتفلت الاوساط الفكرية والادبية والاجتماعية بتونـس خـلال الاسبوع الاخير من الشهر الفارط (ديسمبر 1985) بمرور نصف قرن عـلى وفاة أحـد رواد الادب الاجتماعى زمن الاستعمار واكثرهم جرأة ومواجهة للتقاليد البالية ، المفكر الراحل الطاهر الحداد صاحب الصرخة المدوية « امرأتنـا فى الشريعـة والمجتمـع » .

وقد شهدت مدينة الحامة مسقط رأس الفقيد بهذه المناسبة تظاهـرة ثقافية كبرى أشرف على افتتاحها السيد البشير بن سلامة وزير الشـؤون الثقافية واشتملت على معارض وثائقية وندوات فكرية ومحاضرات .

● جريدة الاتحاد تحاور « نعيمه الصيد » :

تحت هذا العنوان نشرت جريدة « الاتحاد » التى تصدر فى دولة الامارات فى عددها الصادر يوم الاحد 85/11/10 لقاء مع الزميلة نعيمه الصيد أجرته الصحافية سميحة علي وقد جاء فيه قولها : لعل القارىء فى منطقتنا لم يسمع باسم نعيمه الصيد وهذا قصور منه لاننا وجدنا أنفسنا أمام مستوى راق من الابداع والوفاء للكلمة ... يقول الاستاذ محمد مزالى عن قلمها الحر :

« لقد شعرت نعيمه الصيد شعورا حادا بأنوثتها وتألمت من رواسب المجتمع القديم وحاولت أن تثأر لجدتها المسكينة المغلقة عليها الاسوار والمطوقة بالحصار والمنبوذة من الحياة والحرية » .

وفى زيارتها الاخيرة لدولة الامارات تقول الأديبة نعيمـة الصيد خلال لقائها هـــذا :

« نحن فى تونس نعرف عنكم أكثر مما تعرفون عنا .. نتلقف انتاجكم .. نحن الى الروابط معكم .. ولا نجد أحدا يبحث عن انتاجنا الا نادرا » .

● **جوائـز « الأخـلاء » للنقـد الأدبـي :**

□ تحت اشراف وزارة الشؤون الثقافية وتشجيعـا لحركـة النقد الادبـي وحملها على مواكبة الحركية الابداعيـة ترصد « الاخلاء » جوائـز للنقد الادبـي لسنة 1986 وقدرها 3500 دينار تقسم ـ حسب الاهمية ـ كما يلي :

□ جوائز التناولات النقدية المطبقة على احدى المجموعات الشعرية :

★ الجـائزة الاولـى وقدرهـا 500 دينـار .
★ الجـائزة الثـانية وقدرهـا 300 دينـار .
★ الجـائزة الثـالثة وقدرهـا 200 دينـار .
★ الجـائزة الـرابعة : اشتراك سنوى لمدة سنتين بـ « الأخلاء » .

□ جوائز التناولات النقدية المطبقة على احدى المجموعات القصصية :

★ الجـائزة الاولـى وقدرهـا 500 دينـار .
★ الجـائزة الثـانية وقدرهـا 300 دينـار .
★ الجـائزة الثـالثة وقدرهـا 200 دينـار .
★ الجـائزة الـرابعة : اشتراك سنوى لمدة سنتين بـ « الأخلاء »

□ جوائز التناولات النقدية المطبقة على احدى المجموعات النقدية :

★ الجـائزة الاولـى وقدرهـا 500 دينـار .
★ الجـائزة الثـانية وقدرهـا 300 دينـار .
★ الجـائزة الثـالثة وقدرهـا 200 دينـار .
★ الجـائزة الـرابعة : اشتراك سنوى لمدة سنتين بـ « الأخلاء » .

□ ترسل التناولات النقدية مرقونة على وجه واحد من الورقة أو مكتوبة بخط واضح ، على أن لا يقل عدد الصفحات عن 20 صفحة من الحجم 21/31 ، قبل موفى شهر أكتوبر من كل سنة الى العنوان التالي :

« الأخـلاء » / ص. ب 135 .. تونس 1015 .

□ يحق لاى ناقد أن يتقدم بأكثر من بحـث .. كما يحق لـه أن يتنـاول بالنقد أكثر من أثر أدبي لمؤلف واحد شريطة أن تكون الاثار المعنية بالنقد صادرة عن « **الأخـلاء** » لكن يمكن الاشارة الى مؤلفاته الاخـرى الصادرة عـن دور نشر آخرى كاحالات مرجعيـة ...

□ للجنة التحكيم الحق فى أن تسند لاى ناقد أكثر مـن جائزة اذا تبيـن أن دراسته حرية بذلك .

□ كل التناولات النقدية الفائزة محفوظة للأخلاء وتصدر فى كتاب خاص .. كما يمكن اصدار أية دراسة فائزة ضمن كتاب على حدة .. اذا تبيـن أنهـا مستفيضة ومنهجيـة ...

□ لا تؤخذ بعين الاعتبار الا التناولات النقدية المكرسة للآثار الابداعية (قصة / شعر / دراسة) الصادرة عن « الأخلاء » منذ سنة 1978 حتى الآن ..

□ يمكن حجب أية جائزة اذا لم يتوفر فى المادة النقدية المرشحة المستوى الابداعى المطلوب ..

□ يعلن عن أسماء الفائزين بالجوائز فى **مهرجان الشعر العربى الحديث فى دورته السابعة** .

□ **جائزة الموسيقى :** قيمتها 500 دينار كل سنة تسند لصاحب أحسن لحن لقصيدة مختارة من الشعر المنشور فى « الاخلاء » تذاع بأحد الاصوات الشابة .

● **مصلحة إحياء التراث بالمغرب الأقصى :**

فى إطار العمل الاسلامى الذى تضطلع به وزارة الاوقاف والشؤون الاسلامية ، لخدمة التراث الاسلامى عموما ، وما يتصل منه بالتراث المالكى على الخصوص والهادف الى اخراج نفائسه ونشرها على أوسع نطاق .

يسعدها أن تعلن عن اعتزامها تحقيق واخراج الكتابين التاليين :

ــ تهذيب المسالك الى نصرة مذهب الامام مالك : ليوسف الفندلاوى .

ــ الدر المنظم فى الاحتفال بمولد الرسول المعظم : للعزفى .

لذا ، فعلى السادة العلماء والاساتذة والباحثين وكل من له رغبة فى تحقيق أى من الكتابين المشار اليهما أن يتقدم بطلب فى الموضوع الى وزارة الاوقاف والشؤون الاسلامية (قسم الدراسات الاسلامية أو مصلحة إحياء التراث الاسلامى) مع إثبات اسمه الكامل وعنوانه ورقم الهاتف إن أمكن .

● **الدكتور شكرى فيصل فى ذمة الله :**

انتقل الى جوار ربه الدكتور شكرى فيصل ، أحد أعلام الادب والنقد والتحقيق فى العالم العربى ، وذلك إثر عملية جراحية أجريت له فى سويسرا، وقد دفن فى المدينة المنورة . حيث كان يعمل أستاذا للادب والنقد ورئيسا لشعبة الادب والنقد بالجامعة الاسلامية فيها .

كان ــ رحمه الله ــ فى فترة من الفترات أمينا عاما لمجمع اللغة العربية بدمشق ، وأستاذا للادب فى جامعة دمشق ، ثم رئيسا لشعبة الادب والنقد فيها .

وقد أثرى المكتبة العربية بعدد من الدراسات والبحوث القيمة .

ويذكر ان الدكتور شكرى فيصل ولد عام 1919 ، وحصل على ليسانس فى الآداب عام 1942 من جامعة فؤاد الاول ، ثم ليسانس الحقوق من جامعة دمشق عام 1946 ، وفى عام 1949 نال درجة الماجستير عن رسالته (حركة

الفتح الاسلامى) ، وفى 1952 الدكتوراه عن رسالته (المجتمعات الاسلامية فى القرن الاول) . واختير عضوا للمجمع العلمى فى دمشق ، عام 1961 ، ثم أصبح أمينه العام فى 1971 . وعين مدرسا فى جامعة دمشق منذ عام 1953 واستمر حتى عام 1980 ، ثم ترك دمشق الى المدينة المنورة حيث عين أستاذا فى الجامعة الاسلامية .

وقد عرف عنه ــ رحمه الله ــ صلابة العقيدة ، ورقة الحاشية مع إخوانه وتلاميذه ، وحبه للتراث وسعيه الدؤوب لنشره .

رحم الله الفقيد ، وأسكنه فسيح جنانه .

● **المؤتمر الخامس للتعريب :**

انعقد فى عمان من 22 الى 25 سبتمبر 1985 المؤتمر الخامس للتعريب الذى أعد لانعقاده مكتب تنسيق التعريب التابع للمنظمة بالتعاون مع مجمع اللغة العربية بالمملكة الاردنية الهاشمية .

وقد ناقشت اللجان التسعة المنبثقة عن المؤتمر موضوع الترجمة والتعريب حيث تم خلال المؤتمر ترجمة وتعريب خمسين ألف كلمة فى مختلف المعاجم التى تمت مناقشتها .

وهذه المعاجم هى مشروع معجم التربية ومشروع معجم السكك الحديدية ومشروع معجم الكيمياء ومشروع معجم الفيزياء العامة ومشروع المعجم العربى للتعاريف الاحصائية ومعجم للمصطلحات الرياضية والمعجم الزراعى .

وكان المدير العام للمنظمة الأستاذ الدكتور محيى الدين صابر قد ألقى مداخلة هامة فى المؤتمر أبرز فيها أهمية مؤتمرات التعريب وطبيعة الرسالة الموكولة لها ، وحدد السيد المدير العام مسألة المصطلح والبعد الحضارى للتعريب والعلاقة العضوية للمعاصرة الحضارية والابداع التكنلوجى باللغة القومية .

● **الدورة الرابعة عشرة لمجلس التعليم العالى بدول الخليج العربى :**

انعقدت الدورة الرابعة عشرة لمجلس التعليم العالى فى دول الخليج العربى بالرياض عاصمة المملكة العربية السعودية خلال النصف الثانى من شهر ديسمبر 1985 ، وقد خصصت هذه الدورة أساسا للنظر فى عدة مواضيع ساخنة تتعلق بمسيرة أوضاع التعليم العالى بالدول السبع المكونة للمجلس وهى السعودية والامارات العربية والكويت وقطر ، والعراق والبحرين وسلطنة عمان ومن أهم المواضيع المطروقة دراسة جدوى انشاء جامعة مفتوحة لدول الخليج العربى ، واقتراح طريقة عملية للتنسيق بين برامج وتخصصات الكليات والمعاهد التى يتم التفكير فى انشائها بالاضافة الى تعريب التعليم العالى الجامعى.